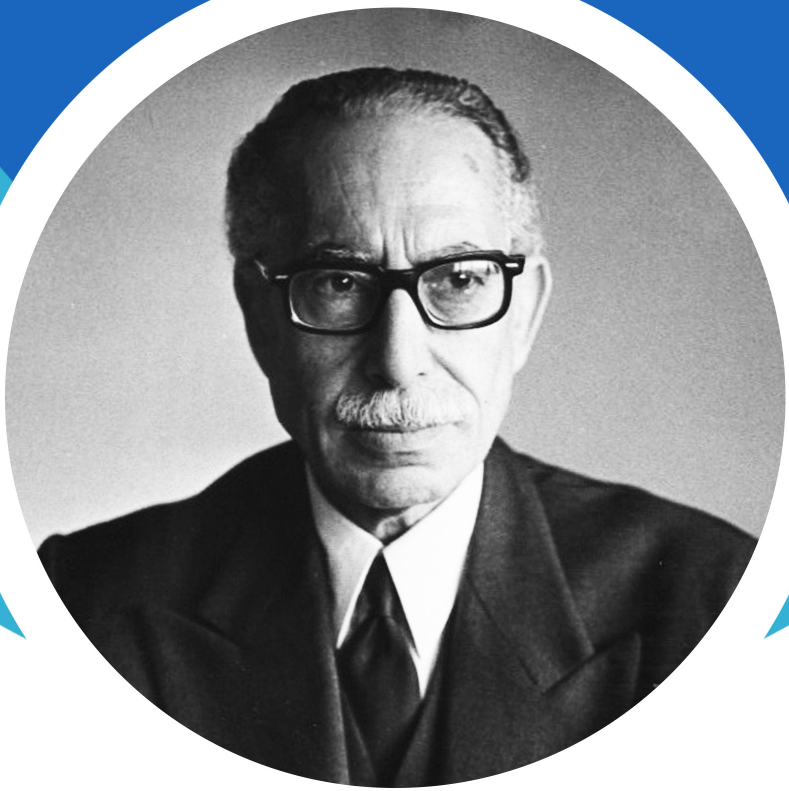

الملك أوديب

توفيق الحكيم

الملك أوديب

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

الملك أوديب

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٧ ٣٢٦٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

مقدمة	٩
الفصل الأول	٣١
الفصل الثاني	٥٣
الفصل الثالث	٧١
مقدمة الترجمة الفرنسية	٨٩
تعقيب على المقدمة الفرنسية	٩٥

الملك أوديب مع بحث طويل في مقدمة وتعقيب عن نشأة الأدب التمثيلي العربي.

مقدمة

«الأدب التمثيلي» باب، لم يُفتح في اللغة العربية إلا في العصر الحاضر! ... وقد تردد «الأدب العربي» في قبول هذا اللون الغريب عليه! ... فتركه زمنًا خارج جدرانه، يسمع بأمره من أفواه النظارة، دون أن يحفل بالالتفات إليه، أو الخوض فيه!

لقد جَدَّ منذ نحو قرن في بعض البلاد العربية، كـ «سوريا» و«لبنان» و«مصر»، نوع من المسارح، يمتزج فيه الجد بالهزل، والتمثيل بالغناء! ... وقد نُقلت إليه بعض قصص الغرب، نقلًا تامًّا وغير تام؛ تُعرض في ثوبها الأصيل، أو في ثوب يناسب الشرق؛ أحيانًا في لغة فصحى، وأحيانًا في لغة تلائم أفهام العامة!

وكان المنبع الذي يستقي منه المسرح، في ذلك الوقت، هو الأدب الفرنسي، والأدب الإنجليزي؛ فرأينا «البخيل» لـ «موليير» تُعرض بالزجل، ورأينا «روميو وجوليت» لـ «شكسبير» تُعرض بالألحان!

كان مبدأ المسرح العربي في الشرق — كما هو معروف — «مارون النقاش»، ثم تبعه خلفاؤه: «القرداحي» و«أبو خليل القباني» ... إلخ! ... إلى أن حمل لواءه «الشيخ سلامة حجازي» ... وولَّى هو الآخر، وورِثه — برواياته وألحانه — «أسرة عكاشة» فمضَوا في خطته ... ولكن الثورة المصرية، وانبثاق الروح القومية، دفعَتهم إلى الالتفات نحو تمصير رواياتهم! ... في ذلك الوقت بدأ كاتب هذه السطور حياته المسرحية؛ مؤلفًا لتلك الفرقة بعض الروايات، على النحو الذي كان العمل عليه جاريًا في تلك الأيام!

كل هذا كان يحدث دون أن يطمع أحد من كتَّاب المسرح في أن يسمى عمله أدبًا! ... ودون أن يلتفت الأدب العربي إلى اعتبار هذا النوع من الكتابة أدبًا: من قريب أو بعيد! ... ودفع شوقي، بعدئذٍ برواياته إلى المسرح؛ فكان لها نجاح عند النظارة! ولكنه لم يفكر، هو أيضًا، في طبعها قبل التمثيل! ... ولم يُقدِّر لها وجودًا مجيدًا، بعيدًا عن أنوار

المسرح! ... فالقصيدة التي كان يدفع بها إلى الصحف السيارة، أو إلى المطبعة ضمن ديوان؛ كانت وحدها المعدة، في رأيه، للدخول ظافرة، إلى قصر الأدب، تعنو لها رءوس الأدباء! ... فالحاجز إذَن بين عالم المسرح، وعالم الأدب؛ كان من الأمور التي تُحير العقول وتحتاج في تفسيرها إلى تعليل!

ورحل كاتب هذه السطور إلى أوروبا في تلك الأثناء ... وهناك انكشف له السرُّ العلة! ... إن عالم المسرح في أوروبا وعالم الأدب مندمجان متداخلان، لا فاصل بينهما ولا حاجز؛ والسبب في ذلك واضح هو أن القصة التمثيلية فرع من الأدب، تُدرَّس في المعاهد والجامعات، على أنها أدب، قبل أن يُدفع بها إلى المسرح؛ فقد ورثت أوروبا هذا الأدب عن الإغريق، وبحثته ودرسته، وعلى أساسه بنَت ونسجَت! ... فهو جزء من آدابها القومية نشأ وترعرع على مرِّ القرون، مُثِّل، أو لم يُمثَّل؛ فهو كائن بذاته، شأنه شأن علوم المنطق، والرياضة، والفلسفة، التي انحدرت إليها من عهد اليونان؛ لذلك لم يجَد كاتب هذه السطور بُدًّا من أن يبدأ من البداية، وأن يرجع إلى المنبع، عندما أراد دراسة الأدب المسرحي!

لقد كان يظن الأمر هيِّنًا، والطريق ميسرًا، يبدأ من حيث شاء، ويتوفر على هذا الأدب المسرحي الحديث، الذي لا يكلِّف في درسه عناءً ولا يحمل في فهمه مشقة ... قالوا له هناك: إذا كنت جادًّا فعُد إلى الإغريق! ... وعاد إلى «أشيل» و«سوفوكل» و«إيروبيد» و«أرستوفان»! ... وهنا أدرك: لماذا يحتفل الأدب العربي بالقصيدة، ولا يعترف بالرواية التمثيلية، حتى وإن كانت شعرًا؟! ... لأن القصيدة هي ميراثه منذ القدم، كما أن الشعر التمثيلي هو ميراث الأدب الغربي منذ القدم!

ما من شيء أقوى من الميراث! ... إذا كانت للخلود يدٌ فإن الميراث يده التي ينقل بها الكائنات، من زمان إلى زمان! ... ما طبائع الأفراد، وخصائص الشعوب، ومقومات الأمم؛ إلا ميراث صفات وسمات، تنحدر من جيل إلى جيل! ... وإن ما يسمونه العراقة في شعب، ليس إلا فضائله المتوارثة، من أعماق الحقب، وإن الأصالة في الأشياء والأحياء، هي ذلك الاحتفاظ المتصل بالمزايا الموروثة، كابرًا عن كابر، وحلقة بعد حلقة! ... هكذا يُقال في شعب، أو رجل، أو جواد! وكذلك يُقال في فن، أو علم، أو أدب! ... عراقة الأدب هي طابعه المحفوظ المنحدر إلينا من بعيد!

لقد أرادت أمريكا أن تختزل الطريق في فن الموسيقى: فابتدَعت ذلك النوع، من موسيقى الزنوج، المسمى بـ «الجاز»، فأخفقت في حمل العالم المثقف، على تبجيل هذه الموسيقى، التي لا أصل لها يُوقَّر، ولا نسب يُحترَم، ولو لم تكن لغتها هي الإنجليزية، لكان

لأدبها أيضًا هذا المصير! … لكن الأدب الأمريكي ما استطاع أن يكون أدبًا إلا لارتكازه على التراث المعترَف به من الأدب الإنجليزي! … فما هو في حقيقة الأمر إلا غصن حديث النَّبت، في دوحة الآداب السكسونية!

الأدب العربي إذَن كغيره من الآداب العريقة، لا يقبل العبث بدمه وطابعه، دون بحث وتمحيص، وحذر واحتياط! … وهو، عندما وقف في القرن الأخير، هذا الموقف الحذر من المسرح؛ لم يكن في ذلك ملومًا ولا كان متجنِّيًا؛ فإن الطريقة التي ظهر بها المسرح، في الشرق العربي، لم تكن على أساس، يمكن تسويغه في نظر ذلك الأدب العريق … ولو أنه قام فينا — منذ قرن أو قرنين — أديب ينادي متسائلًا: «أيها الأدب العربي! … لقد كان بينك من قديم وبين الفكر الإغريقي وشائجُ وصلات … لقد نظرتُ فيه وأخذتُ مما عنده من علوم وفلسفة، ولكنك أشحتَ بوجهك عما عنده من شعر! … إلامَ هذه القطيعة؟ … ومتى يتم الصلح بينك وبين الشِّعر الإغريقي؟ … انظر فيه قليلًا، واسمح بنقله وبحثه، فربما وجدت عنده ما يدعم تراثك، وينمِّي للأجيال القادمة ميراثك!»

هذا الصوت لم يرتفع في القرون الماضية، وظلت القطيعة بذلك قائمة بين الأدب العربي والأدب الإغريقي … وباستمرار هذه القطيعة تعذر على المسرح أن يقوم على أساس وطيد، وأن يجد مكانًا لدينا، في أورقة: الأدب، والفكر، والثقافة!

لا بُدَّ إذَن من الصلح بين الأدبين، إذا أردنا من الأدب العربي أن يُقرَّ، في تاريخه العريق، هذا القالب التمثيلي من الشِّعر أو النثر إقرارًا، له قيمة وبقاء … ولكن … كيف يكون الصلح؟

لا بُدَّ، قبل كل شيء من أن نعرف أسباب النفور؛ لنسعى بعدئذٍ في التوفيق، ونأتي بوسائل الوفاق.

قبل كل شيء ينبغي لنا أن نتساءل: على من تقعُ تبعة الإحجام عن نقل الشعر الإغريقي إلى اللغة العربية؟ … وهذا السؤال يجرنا إلى البحث في طريقة نقل التراث الإغريقي وموجباته وموحياته!

المعروف أنه عقب فتوح «الإسكندر» تغلغل الروح اليوناني في «آسيا»، وكانت «سوريا» و«ما بين البحرين»، أي «دجلة والفرات»، من أهم المناطق التي خضعت لنفوذ الحضارة الإغريقية! … هناك في صوامع نُسَّاك السوريين، المنتشرة في تلك البقاع، نشطت على مدى القرون حركة ترجمة واسعة، للمؤلفات الفلسفية والعلمية من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية! … من هذه الترجمات السريانية، جاء العرب بعدئذٍ، ونهلوا، ونقلوا!

إذا كان هذا القول صحيحًا فإن على العرب أن يقولوا إنهم نقلوا ما وجدوا! ... ولم يكن الشعر من بين ما عُني به أولئك الرهبان! ... ولكن الذي حدث، هو أن كثيرين من العرب تعلّموا بعد ذلك اليونانية، واستطاعوا أن ينقلوا عنها مباشرة!

وكان مما نُقل منها إلى العربية كتاب الشعر أو «البويطيقا» لـ «أرسطو»! ... وفيه تعريف بـ «التراجيديا» و«الكوميديا» وما إليهما من فنون الشعر التمثيلي! ... وجاء «ابن رشد»، فدلَّنا — بتعليقاته المشهورة على كتاب «البويطيقا» — أن العرب ما أرادوا عامدين أن يُوصِدوا الذهن، دون العلم بفن الشعر عند الإغريق! ... كيف إذَن لم يدفعهم الفضول، بعدئذٍ، إلى نقل بعض ألوان «التراجيديا» أو «الكوميديا» إلى العربية؟

من المفهوم أن يقعدوا عن نقل شعر غنائي؛ مثل شعر «بندار» أو «أنا كريون». ففي الشعر العربي الجاهلي أو العباسي ما يضاهي ذلك اللون ... ولكن لماذا — وهم على ما نعرف من حب الاطلاع — لم يُقدِموا على ترجمة مآسي شعراء الإغريق؟! ... الجواب عن ذلك يقتضي أولًا: أن نعرف ما هي «المأساة» ... وكيف نشأت في اليونان! ... لم يبقَ شكٌّ اليوم في أن «التراجيديا» قد نتجت عن عبادة «باكوس»، إله الخمر المعروف عند الإغريق باسم «ديونيزوس»؛ ففي كل ربيع كانت تُقام لهذا الإله حفلات دينية، صاخبة بالنشوة، فياضة بالمرح! ... يرقص الناس فيها ويغنون، حول تمثال إله الخمر، وهم متنكرون في جلود الماعز، وأوراق الشجر! ... وكان هذا الرقص والغناء في مبدأ الأمر مرتجلًا ... فإذا مرَّ الزمن بعد ذلك، يهذب من شأنهما ... وإذا الناس يضعون، هذا الرقص، وهذا الغناء، على أسس من الإعداد والتنسيق، ويؤدونهما طبقًا لقواعد محددة الأركان ... وما لبث ذلك الغناء أن امتزج به نوع من التنويه بأعمال ذلك الإله على صورة سرد، يُلقَى مُشيدًا: بفتوحاته، ومغامراته، ورحلاته العجيبة! ... ثم تطور الأمر، بجوقة الراقصين من الناس، إلى أن صاروا ينوِّعون في ثياب تنكُّرهم، ويمثِّلون ألوانًا أخرى من «الشخصيات» غير الماعز والحيوانات! ... وتطور السرد أيضًا فصار يُعنَى بأشياء أخرى، لا صلة لها بحياة الإله، الذي يحتفلون بأعياده، حتى ضجَّ الرجعيون والمحافظون من الشيوخ لهذه البدعة؛ فقالوا: «ما في هذا شيء لـ «باكوس»!» وصارت هذه الجملة بعد ذلك مثلًا في اللغة اليونانية!

ولكن من هذه البدعة التي أثارت النقد والغضب، خرج الفن المسرحي! ... فلم يمضِ قليل حتى ظهر رجل يدعى «تسبيس» قادَه تفكيره إلى أن يؤلف ما ينبغي أن يوضَع على لسان الجوقة المنشدة، وعلى لسان ممثل واحد، يحاور الجوقة وتحاوره ... وجعل لهذا الممثل أقنعة وملابس مختلفة، فاستطاع بذلك أن يتقمص بمفرده شخصيات عدة!

على هذا النحو، انتقل الأمر من مرحلة السرد، إلى مرحلة الحوار والحركة! ... وهنا وُلدت التمثيلية، ووجدت «التراجيديا» ... وجاء بعد «تسبيس» شاعر يدعى «فرينيكوس»، سار خطوة أخرى بهذا الفن؛ فقد قيل: إنه أول من أدخل شخصيات النساء في التمثيل! ... وإنه جعل الجوقة، تنقسم قسمين، يستطيع أحدهما أن يحاور الممثل بلهجة الرضا عن أعماله، بينما الآخر يحاوره بلهجة السخط والنقد، كما لو كانت الجوقة بقسميها الناس في المجتمع، بينهم المؤيد لما يرى من أعمال، وبينهم المعارض!

ويذكر لنا التاريخ أيضًا، شاعرين معاصرين لذلك الشاعر، هما: «كيريلوس» و«براتيناس»، قام كل منهما بنصيب في تحسين هذا اللون من الفن! ... أولئك جميعًا، كانوا هم المُمهدين لظهور أساتذة «التراجيديا» العظام: «إشيلوس» و«سوفوكلس» و«إيروبيدس»!

تلك إشارة سريعة إلى نشأة الشعر التمثيلي في اليونان ... منها نرى أن عبادة «باكوس» هي أم «التراجيديا»! ... لقد انسكب هذا الفن لنا إذَن؛ كما ينسكب الخمر ... من دنَّ الدين! ... هكذا مضى شعراء «التراجيديا» العظام، ينسجون آثارهم الخالدة من أساطيرهم الدينية: من «الميثولوجيا»، ويودعونها روح الصراع بين الإنسان والقوى الإلهية ... أتُرى هذه الصبغة الدينية هي التي صدت العرب عن اعتناق هذا الفن؟

هذا رأي جماعة من الباحثين؛ فهم يزعمون أن الإسلام هو الذي حال دون اقتباس هذا الفن الوثني! ... إني لست من هذا الرأي؛ فالإسلام لم يكن قط عسيرًا على فن من الفنون؛ فقد سمح للناقلين أن يترجموا كثيرًا من الآثار، التي أنتجها الوثنيون: فهذا كتاب «كليلة ودمنة» الذي نقله «ابن المقفع» عن «اللغة الفهلوية»، وهذا كتاب «الشاهنامة للفردوسي» الذي نقله «البنداري» عن «الفرس» في عهدهم الوثني! ... كما أن الإسلام لم يَحُل دون ذيوع خمريات «أبي نواس»، ولا دون نحت التماثيل في قصور الخلفاء، ولا دوَّن براعة التصوير في «المنياتور» الفارسي، كما أنه لم يَحُل دون نقل كثير من المؤلفات اليونانية، التي جاء فيها ذكر لتقاليد وثنية ... كلا، ليست صفة الوثنية في ذاتها، هي التي صرفت العرب عن الشعر التمثيلي! ... ما الذي حجَّمهم إذَن؟ ... أتُراها صعوبة فهم ذلك القصص الشعري، وكله يدور حول أساطير، لا سبيل إلى فهمها إلا بشرح طويل، يذهب بلذة المتتبع لها، ويقضي على مُتعة الراغب في تذوقها؟ ... ربما كان في هذا التعليل شيء من الصواب؛ فلقد أدهشتني عبارة للناقد «فرانسسك سارسي» ينصح بها النظارة، عندما مُثِّلت «أوديب الملك» على مسرح «الكوميدي فرانسيز» في عام ١٨٨١م، وهي المأساة التي اعتبرها أنا من

أقل مآسي اليونان غرقًا في «الميثولوجيا الدينية»! … وأكثرها وضوحًا ونقاءً، وأقربها إلى النفس في إنسانيتها المجردة!

قال الناقد: «أنصح للنظارة — لا سيما النساء منهم — أن يفتحوا كتابًا أو معجمًا في «الميثولوجيا الإغريقية»، يطالِعون فيه — قبل مشاهدة تمثيل الرواية — ملخص أسطورة «أوديب»؛ فإن هذا يجنبهم سأم التَّوهَ والضلال، في ظلمات الفصل الأول.»

هذه النصيحة تساق إلى من؟ … إلى جمهور أمة أقامت ثقافتها على أساس «التراث الإغريقي» … جمهور قد عرف أكثره مقاعد الدرس؛ حيث لُقن — ولا شك فيما لُقن — آداب اليونان؛ بمآسيها، وملاهيها! … إذا كان مثل ذلك الجمهور — في مثل ذلك العصر الحديث — لم يزل في حاجة إلى ملخص أو معجم لمتابعة «مأساة أوديب»، فما بالنا بالقارئ العربي، في العهد العباسي أو الفاطمي؟!

لكن، على الرغم من وجاهة هذا التعليل، فإني لا أعتقد أن هذا أيضًا، يحول دون نقل بعض آثار هذا الفن؛ فإن كتاب «الجمهورية» لـ «أفلاطون»، قد تُرجم إلى العربية، وما أشك أن فيه من الأفكار، حول تلك المدينة المثالية، ما يشقُّ على العقلية الإسلامية أن تسيغه، ولكن ذلك لم يمنع من نقله، بل إن هذه الصعوبة بالذات قد دفعت «الفارابي» إلى أن يتناول «جمهورية أفلاطون» فيُضفي عليها ثوبًا جديدًا من خواطره، ويصبَّها في قالب عقليته الفلسفية الإسلامية!

مثل هذا كان يصح أن يحدث «للتراجيديا الإغريقية» … كان في الإمكان أن تنقل مأساة مثل «أوديب» ثم يتناولها بعدئذٍ شاعر أو ناثر، فيُطوِّح عنها ما يشقُّ فهمه، من الإشارات الميثولوجية، ويجرِّدها مما يغلفها من العقائد الوثنية، ويبرزها واضحة جلية في بدنها الإنساني العاري! … أو يلقي عليها ثوبًا شفافًا من العقيدة الإسلامية، أو التفكير العربي!

لماذا لم يتم ذلك؟ … لأن هنالك سببًا آخر، ولا ريب، هو الذي صدَّ العرب عن اقتباس المسرح الإغريقي! … لعل السبب هو أن «التراجيديا الإغريقية» ما كانت — حتى ذلك الحين — تُعتبَر أدبًا مُعَدًّا للقراءة! … إنها لم تكن وقتئذٍ شيئًا مما يُقرأ مستقلًّا، كما تُقرأ «جمهورية أفلاطون»، فقد كانت تُكتب، لا للمطالعة، بل للتمثيل! … وكان المؤلف يعرف أن عمله سيعرض على الناس، ممثلًا في مسرح، فكان يجرد نصوصه وحواره من الشروح، والملاحظات، والمعلومات اللازمة، للإحاطة بجو القصة — اعتمادًا منه على أن المشاهد، سوف يدركها ببصره، قائمة ماثلة عند الإخراج … وفي الحق لقد بلغ المسرح

الإغريقي حدًّا من الدقة والتعقيد، في آلاته وأدواته، يثير الدهش! … فكان فيه من الآلات، التي تتحرك، وتدور حول نفسها، ومن الحيل والوسائل المسرحية — ما مكن أولئك القوم من إخراج «بروميثيوس المقيد»، للشاعر «إشيل» بما فيها من عرائس البحر، وهي تخطر خلال السحب والمحيط، وهو قادم ممتطيًا ظهر ذلك الحيوان الخرافي، الذي له رأس نسر، وجسم جواد!

لعل هذا مما جعل المترجم العربي، يقف حائرًا أمام «التراجيديا»! … فهو يقلب بصره في نصوص صماء، يحاول أن يُقيِّمها في ذهنه، نابضة متحركة، بأشخاصها وأجوائها، وأمكنتها، وأزمنتها؛ فلا يسعفه ذلك الذهن؛ لأنه لم يرَ لهذا الفن مثيلًا في بلاده … إن «الجوقة»، عند الإغريق، هي التي خلقت التمثيل! … والممثل «تسبيس» هو الذي خلق التمثيلية! … لم تَخلق الرواية المسرح، ولكن المسرح هو الذي خلق الرواية! … وما دام المترجم العربي قد أيقن أنه أمام عمل، لم يُجعَل للقراءة. ففيمَ ترجمته إذَن؟

لعل هذا هو علة الإحجام عن نقل الشعر التمثيلي اليوناني، إلى اللغة العربية! … لقد كانت حركة ترجمة الآثار الإغريقية، مقصودًا بها حصول النفع، لا مجرد حب الاطلاع، أو مجرد الفضول! … وقد انتقى النفع في هذه الحالة؛ لما في «التراجيديا» من معانٍ ومرامٍ — لا تبلغ ولا تنال، بالمطالعة وحدها — كان لا بُدَّ لإبرازها من أداة التمثيل، وهي شيء غير موجود ولا مألوف!

على أن السؤال، الذي يجب أن يلقى بعدئذٍ هو: لماذا لم يكن التمثيل في الحضارة العربية ولم يُعرَف؟

لقد كان للعرب هم أيضًا عهدهم الوثني، وكان من شعرائهم في ذلك العهد، من قيل: إنه ذهب إلى بلاد «قيصر»؛ مثل «امرئ القيس»! … هناك رأي، ولا ريب، مسارح الرومان، قائمة شامخة، وقد ورثوا هذا الفن عن اليونان … أمَا استطاعت رؤية المسرح أن توحي إلى الشاعر العربي الوثني بفكرة اجتلابه، أو نقله، أو اقتباسه؟

نقله إلى أين؟ … هنا المشكلة! … إن الوطن الذي يَنقل إليه هذا الفنَّ الشاعرُ العربي الوثني — لو أراد — ليس سوى صحراء واسعة كالبحر، تسعى فيها الإبل كالسفن، هائمة برَكبها من جزيرة إلى جزيرة، هي واحات متناثرة، تنفجر بالماء اليوم وتونِع بالنبت؛ ليغيض نبعها في الغد، وتذبل خضراؤها … وطن متنقل على ظهور القوافل، يجري هنا وهناك، خلف قطرة غمام! … وطن يهتز فوق الإبل في سيرها الطويل، اهتزازًا متصلًا، منغَّمًا متزنًا، يغري الرَّكب بالغناء! من ها هنا وُلد الشعر العربي؛ نشأ من الحُداء، عندما

رفع المُمسك بزمام الجمل الأول عَقيرته مُنشدًا، على وقع تلك الموسيقى الخفية الخافتة، المنبعثة من وطء أخفاف الجِمال على الرمال!

كل شيء إذَن، في هذا الوطن المتحرك، كان يباعد بينه وبين المسرح؛ لأن المسرح يتطلب أول ما يتطلب: الاستقرار!

افتقار العرب إلى عاطفة الاستقرار، هو في رأيي السبب الحقيقي لإغفالهم الشعر التمثيلي، الذي يحتاج إلى المسرح؛ فإن مسرح «باكوس» الذي كشفَت عن آثاره أعمالُ الحفر في العصر الحديث كان بناء متينًا راسخًا، مؤسسة مِلكًا للدولة ... ومن يطَّلع على ضخامة ذلك البناء في آثاره أو رسومه، وما كان يتَّسع له من آلاف المشاهدين يحكم من الفور بأن هذا أمر لا بُدَّ له من مدنية مستقرة، وحياة اجتماعية موحدة مكتَّلة! ... ولكن، أمَا من حق باحثٍ أن يعترض قائلًا: لقد عرف العرب في الدولة الأموية، والدولة العباسية، وما بعدهما تلك المدنية المستقرة، وذلك المجتمع الموحد المتكتل؛ فما بال العرب في تلك العهود قد انصرفوا عن تشييد المسرح، وهم على ذلك قادرون، بينما رأيناهم يمرُّون بالحضارات المختلفة، فيقتبسون من فن عمارتها، ما أقاموا به فنًّا للعمارة رائعًا، يحمل طابعهم الجديد؟!

الجواب عن ذلك بسيط، هو: أن العرب، في الدولة الأموية وما بعدها، ظلوا يعتبرون شعر البداوة والصحراء، مثلَهم الأعلى، الذي يُحتذى، وينظرون إلى الشعر الجاهلي نظرتهم إلى النموذج الأكمل، الذي يُتَّبع! ... فهم قد أحسُّوا فقرهم في العمارة ولم يُحسوا قط فقرهم في الشعر! ... وهم عندما أرادوا أن ينقلوا عن غيرهم وينهلوا، ذهبوا كل مذهب، ونظروا في كل فن إلا فن الشعر الذي اعتقدوا أنهم بلغوا فيه الغاية منذ القدم! ... وهكذا نرى أنفسنا أمام دائرة مفرغة، تدور بأسباب، تحُول كلها دون اقتراب العرب من التمثيل!

لكن، أكان من الضروري للأدب العربي أن تولد فيه «التراجيديا»؟ ... وهل كانت «التراجيديا» لونًا لازمًا لتطور الأدب العربي، واكتمال شخصيته؟!

من يطَّلع على مقدمة «كروميل» المشهورة لـ «فكتور هوجو» يجد بعض الجواب:

إنه يقسِّم تاريخ البشرية إلى ثلاثة عهود: «العهد الفطري» هو في رأيه عهد «الشعر الغنائي»، وعنه يقول: في العهود الفطرية يُنشد الإنسان كأنه يتنفس؛ فهو في عهد فتوته صداح بالغناء ... إلخ ... ثم يأتي «العهد القديم» وهو «عهد الملحمة»؛ فقد تطورت القبيلة وصارت أمة، وحلَّت غريزة المجتمع محل غريزة التنقل! ... تكونت الأمم وعظُم شأنها واحتكَّ بعضها ببعض، وتصادمت فتحاربت ... هنا ينهض الشعر؛ ليروي ما وقع من

أحداث، ويقصُّ ما جرى للشعوب، وما حلَّ بالإمبراطوريات! … وأخيرًا يأتي العهد الحديث وهو عهد التمثيلية، وهي في نظره «الشعر الكامل»؛ لأنها تحوي في جوفها كل الأنواع، فيها بعض من الغناء وبعض من الملاحم!

ولنصغِ إليه، وهو يلخص فكرته، بقوله إن المجتمع البشري يدرج ويشبُّ متغنِّيًا بأحلامه، ثم يأخذ بعدئذٍ في سرد أعماله، ثم يعمد آخر الأمر إلى تصوُّر أفكاره!

ويدعونا «هوجو» إلى امتحان مذهبه في كل أدب من الآداب على حدة، مؤكِّدًا لنا أنَّا واجدون فيها كلها مصداقًا لهذا التقسيم؛ فشعراء الغناء عنده يسبقون دائمًا شعراء الملاحم، وشعراء الملاحم يسبقون شعراء التمثيل!

أترى هذا المذهب صالحًا للتطبيق على الأدب العربي؟

في رأيي أنه يصلح، لو تغاضينا عن «القوالب»، وانتصرنا في بحثنا على «الأغراض»! … ما من شك في أن الشعر العربي قد تغنَّى بالأحلام، ووصف الحروب، وصوَّر الأفكار دون أن يغير في طريقته، أو يخرج عن قالبه، أو ينحرف عن أوضاعه! … وسلك في هذا السبيل عين الترتيب الذي أورده «هوجو»؛ ففي العصر العباسي وحده، نجِد «البحتري» قبل «المتنبي»، و«المتنبي» قبل «أبي العلاء»! … ولو غرس هؤلاء الشعراء في أرض اليونان، لكان «البحتري» «صنَّاجة العرب» هو «بندار»، ولكان «المتنبي»، الذي دوَّى في آذاننا، على مدى الأجيال بصليل السيوف هو «هومير»، ولكان «أبو العلا»، الذي صور لنا التفكير في الإنسان ومصيره والملأ الأعلى، هو «إشيل»! … فالتطور إذَن من حيث «الموضوع» قد تم … ولكن التطور — من حيث الشكل — حالت دون إتمامه تلك الظروف، التي لابسَت نشأة الدولة العربية! … ظروف — كما رأينا — لا تنافي عقلية العرب، ولا تعارض طبيعتهم الفنية، ولكنها استطاعت على كل حال، في تلك المرحلة من تاريخهم، أن تُقصيهم على رغمهم، عن هذا الفن من فنون الأدب!

ليست هنالك إذَن خصومة أصيلة بين اللغة العربية والأدب التمثيلي … إما هو نوع من التباعد المؤقت، مرجعه الافتقار إلى الأداة … شأن العرب هنا شأنهم يوم كانوا لا يعرفون من المطايا غير الإبل … لو أن الظروف شاءت أن تحرمهم الجواد، لظلُّوا حتى الساعة لا يعرفون ركوبه! … ولكن ما إن دخل الجواد الصحراء حتى غدا العرب فرسانه! … حذِقوا فنون تربيته، وفنون الحديث عنه … فإذا سئل اليوم عن الجواد الأصيل، في أرجاء العالم قيل: هو الجواد العربي، وإذا أريد وصف رائع لخصال الخيل؛ فلن يكون إلا في الشعر العربي!

كل الأمر إذَن في «الأداة»! ... وكما أن العرب في عهد الإبل كان لسان حالهم يقول: «أعطونا الجواد ونحن نركب!»؛ فإنهم كذلك قد يقولون: «أعطونا المسرح ونحن نكتب!»

وما من ريب في أن العالم اليوم قد تغيَّر ... وأصبح المسرح — بمعناه الواسع — ضرورة من ضرورات الحياة الحاضرة، ليس وقفًا على طبقة دون طبقة؛ فهو الغذاء اليومي لأذهان الناس، يختلف رسمه باختلاف ثقافاتهم، ولكنه في آخر الأمر هو أداة الفن الشائعة، في مشارق الأرض ومغاربها، وأعني بالمسرح هنا كل فنٍّ يرمي إلى تصوير الأشياء والأشخاص والأفكار على: خشبة، أو شاشة، أو موجة، أو صفحة؛ بأن يقيمها حية، تتحدث، وتتحاور، وتبرز مكنون سرها وفكرها، أمام الناظر، أو السامع، أو القارئ! ...

هذا الأسلوب العالمي في عرض الأفكار عرضًا حيًّا — في صورة «تمثيل» — لم يَعُد إلى تجاهله من سبيل! ... وحيثما ذهبنا اليوم في بلاد «الضاد» وجدنا دُورًا شاهقة سامقة مزخرفة، هي أفخم دُور مُدننا بناءً، تلك هي «المسارح»!

وجد لدينا «المسرح» إذَن، أي «الأداة» ... وأصبح في حياتنا العربية من حاجاتنا الضرورية؛ كالخبز والماء ... وفي كل يوم تتسع رقعة العمل أمام هذه «الأداة» التي تسمى «التمثيل»، حتى أمست — بعد انتشار «الإذاعة» — غذاء يوميًّا يدخل كل بيت! كل هذا كان يجب أن يبلغ أسماع الأدب العربي العريق ... وأن يحمله على الالتفات إلى هذا الفن وإقرار أسسه بين مناهجه وأبوابه ... وأغلب ظني أن الأدب العربي توَّاق إلى ذلك؛ فما هو بالأدب الميت، ولا بالأدب الجامد!

ولكن ما الوسيلة؟ ... إنه لا يستطيع أيضًا أن يفتح في هيكله النبيل بابًا، ويقرَّ فيه فنًّا على غير دعائم؛ فما هو بالأدب العابث ولا بالأدب الدخيل! ... أولئك الذين حافظوا على الأنساب في الآدميين والجياد، لا ينبغي أن نفجعهم في عراقة أدبهم، في زمن أخير من الأزمان! ... لا بُدَّ إذَن من إيجاد حلقة نسب مفقودة، نرجع إليها؛ لنُحكِم رباط الأدب بالفن التمثيلي! هذه الحلقة لا يمكن أن تكون سوى: «الأدب الإغريقي»!

لهذا كله يتحتم الصلح بين الأدبين العريقين.

وهنا نقترب من المسألة الكبرى: ما هي طريقة الصلح؟ ... أيكفي لها العكوف، بعناية واحتفال، على الأدب التمثيلي اليوناني، ننقله كله إلى لغتنا العربية؟ ... هذا أمر لا بُدَّ منه بالبداهة ... ولقد تم من ذلك شيء كثير، بل كلنا شاهدٌ على المسرح العربي «أوديب الملك» لـ «سوفوكل» تمثل منذ أكثر من ثلث قرن!

على أن مجرد نقل الأدب التمثيلي الإغريقي إلى اللغة العربية، لا يوصلنا إلى إقرار أدب تمثيلي عربي ... كما أن مجرد نقل الفلسفة الإغريقية، ما كان يوصل إلى إيجاد الفلسفة العربية أو الإسلامية.

ما الترجمة إلا آلة يجب أن تحملنا إلى غاية أبعد!

هذه الغاية هي الاعتراف من المنبع، ثم إساغته، وهضمه، وتمثيله؛ لنخرجه للناس مرة أخرى، مصبوغًا بلون تفكيرنا مطبوعًا بطبائع عقائدنا! ... هكذا فعل فلاسفة العرب، عندما تناولوا آثار «أفلاطون» و«أرسطو»!

كذلك يجب أن نفعل في «التراجيديا» اليونانية، نتوفر على دراستها بصبر وجلد، ثم ننظر إليها بعدئذٍ بعيون عربية.

وخلفَنا طريق مماثل قد سُلك في تاريخ الآداب الفرنسية ... فقد عاد شعراء المآسي فيها إلى الآثار اليونانية القديمة، إلى آثار «إشيل» و«سوفوكل» و«إيروبيد»؛ فاغترفوا منها ونقلوا، دون أن يغيروا في الموضوع، أو الأشخاص، أو الحوادث، ولكن أسبغوا على تلك الآثار كلَّ روحهم الفرنسي!

تلك هي وسيلة الصلح، بل عملية «التزاوج» بين روحين، وأدبين!

ذلك التزاوج الذي حدث بين الفلسفة اليونانية والفكر العربي وهذا التزاوج يجب أن يحدث نظيره، بين الأدب اليوناني والأدب العربي، فيما يتعلق «بالتراجيديا» ... إذا تم ذلك على أي نحو من الأنحاء بالشعر أو بالنثر، فما إخال الأدب العربي إلا معترفًا بهذا الباب الجديد القديم، متغاضيًا عن الزمن الذي حدث ذلك فيه! ... فما الزمن في تاريخ الأدب الطويل بذي بال، ما دامت الحلقات فيه وثيقة الاتصال، منطقية الارتباط، معقولة الخطوات.

ولقد كان من رأيي دائمًا أن الأدب العربي الحديث ليس إلا استمرارًا لحركة التجديد، التي قام بها «الجاحظ» في القرن الثالث الهجري وعلى الرغم من انتكاسه أحيانًا، ووقوعه في الانحطاط والتقليد في فترات تخللت هذا الزمن الطويل، وعلى الرغم مما قيل عن تأثره الأعمى بالأدب الغربي في العهد الأخير؛ فهذا التأثر الذي لاحظه بعض السطحيين من المستشرقين، ما تعدَّى الشكل، والمظهر، واللباس! ... وهو أمر طبيعي في تاريخ آداب كل الأمم. فإن الرداء الخارجي مِلكٌ مشاع للحضارة القائمة في أي عصر من العصور، ولكن الاختلاف يكون في الجوهر والطابع، والإحساس! وما فقد الأدب العربي قط روحه وتفكيره وإحساسه على مدى الأحقاب، سواء وقف أو سار، جمُد أو تطوَّر!

هكذا دُفعت دفعًا إلى دراسة الأدب التمثيلي عند اليونان! ... ما نظرتُ فيه، نظرة باحث فرنسي أو أوروبي، بل نظرة باحث عربي شرقي! ... والنظرتان مختلفتان جدًّا — كما اتضح لي فيها بعد — فإنه على الرغم من ملابسي الأوربية، التي كنت أذهب بها إلى «الكوميدي فرانسيز» أشاهد «أوديب» لـ «سوفوكل» يمثِّلها «ألبير لامبير» ... وعلى الرغم من ذلك الروح الفرنسي، الذي كان يشعُّ من مآسي «كورني» و«راسين»؛ فإن شيئًا في أعماق نفسي كان يدنيني من روح «التراجيديا» كما أَحسها الإغريق!

وما هي روح «التراجيديا» عند الإغريق؟ ... هي أنها تنبع من شعور ديني! ... كل جوهر «التراجيديا» هو أنها صراع، ظاهر أو خفي، بين الإنسان والقوى الإلهية المسيطرة على الكون! ... صراع الإنسان مع شيء أكثر من الإنسان، وفوق الإنسان! ... أساس «التراجيديا» الحقيقية في نظري، هو إحساس الإنسان أنه ليس وحده في الكون، وهذا ما أعنيه بلفظ «الشعور الديني»! ... مهما يكُن «شكل» التمثيلية، وإطارها، وأسلوبها، والأثر الذي تحدثه في النفس؛ فإن هذا كله لا يسوغ في رأيي، وصفها بـ «التراجيديا» ما دامت لا تقوم على هذا «الشعور الديني»! ... هذا العنصر الإلهي في روح «التراجيديا»، لم يحتفظ بحرارته وتألقه على مدى العصور؛ فمنذ العصر اللاتيني تجِد الشعراء يتناولون بالتقليد الدقيق «التراجيديا» الإغريقية، في كل مظاهرها الخارجية، دون أن يحتفظوا كثيرًا بالجوهر، وجاء عصر النهضة فأوغل في هذا السبيل، ولم يعُد الشعراء يفرقون بين المأساة والبشاعة؛ فكلما كدَّسوا الرعب، وكتَّلوا الهول حسبوا أنهم يصنعون مأساة، تُضارع المآسي اليونانية، حتى أتى القرن السابع عشر؛ فإذا نحن أمام «التراجيديا»، وقد أمسَت صراعًا بين الإنسان ونفسه؛ فهي مع «كورني» قائمة على حوادث التاريخ، ولنصغِ إلى العلامة «برونتيير» وهو يقول محبِّذًا:

«أوَليس التاريخ هو مشهد صراع بين إرادة وإرادة، إنه لمن الطبيعي أن يغدو التاريخ ملهمًا لمسرح، يقوم بأكمله على الإيمان بسلطان الإرادة.»

أما مع «راسين» فقد أصبحت «التراجيديا» صراعًا بين عاطفة وعاطفة، وإذا «الحب» مع ما يتبعه من غيرة، وحسد، وحقد وبغضاء — هو المجال الذي يتحرك فيه شعوره وتفكيره، وكلاهما — فضلًا عن ذلك — غلف مآسيه بالروح الفرنسي، فالشاعر كورني «فَرنسَ» التاريخ، إلى حدٍّ جعل «نابليون» فيما بعد يفضِّله على جميع الشعراء؛ فقد كان يقول عنه: «هذا الرجل قد استشف معنى «السياسة»! ... ولو أنه كوَّن تكوينًا عمليًّا لكان رجل دولة، إن حكم الدولة قد حل عند الشعراء المحدثين محل حكم القدر عند الأقدمين! ... وإن «كورني» هو الوحيد، من بين الشعراء الفرنسيين، الذي أحس هذه الحقيقة!»

ويبدو أن إعجاب «نابليون» بهذه النزعة عند «كورني» حمله على التنويه بها كثيرًا، وعلى إظهار الأسف أن «كورني» لم يعِش في عهده، وإلا كما قال: «كنت جعلته أميرًا، بل كنت عينته وزيرًا أول!»

ولم يجد «نابليون» ما يفعله من أجل «كورني» هذا إلا أن يبحث عن أحفاده، فما وجد منهم غير امرأتين، أمرَ بأن يجري عليهما معاش سنوي، قدره ثلاثمائة من الفرنكات!

في هذا العصر بالذات لم يكن من الميسور، فيما يبدو، أن يتذوق الشعب المآسي الإغريقية على وضعها الصحيح، ولا أن ينفذ، حتى خاصتهم، إلى روحها؛ فقد تمنى «نابليون» أن يرى «أوديب» لـ «سوفوكل» ممثَّلة على المسرح، فوجد معارضة شديدة من ممثل فرنسا الأول، في ذلك العصر، «تالما» العظيم! ... لكن «نابليون» شرح وجهة نظره قائلًا:

«إني ما أردتُ، بهذه الرغبة، أن أصحح وضعنا المسرحي الحديث، ولا أن أدخِل عليه بدعة من البدع ولكن أردت أن أشاهد هذا الأثر الذي يمكن أن يُحدِثه الفن القديم، في مشاعرنا وظروفنا الحديثة! ... وإني لموقن أن تنفيذ ذلك الأمر كفيلٌ أن يبعث في النفس سرورًا، وإن كنت أتساءل — مع ذلك — عن الموقع الذي تقعه من أذواقنا مشاهد «الجوقة» والمنشدين، على الوضع الذي عرفه الإغريق؟!»

ذلك ما كان من أمر «كورني»، أما ما كان من أمر «راسين»؛ فإنه ما زاد على أن صور الحالة النفسية لعصره؛ عارضًا إياها على المسرح، في ذلك الإطار، الذي أطلق عليه اسم «التراجيدي»!

تبدَّد إذَن على مر العصور، وتبخر في رياح الزمن ذلك «الشعر الديني» الذي جعل من المأساة الأولى صراعًا، بين الإنسان وبين ما هو أكثر من الإنسان! ... لعل هذا من بوادر النهضة العلمية في ذلك القرن!

مهما يكن من أمر الباعث؛ فإن الشعراء والناس قد تَغير إيمانهم فأمسَوا يعتقدون أنَّ لا شيء غير الإنسان في هذا الكون بدولته، وحكومته، وساسته، وسلطته!

بانطفاء هذا الشعور الديني لا أمل في رأيي لقيام «التراجيديا»، ولعل هذا هو السبب في موت «التراجيديا» في عصرنا الحاضر! ... ما من شاعر واحد في العالم اليوم استطاع أن يؤلف «تراجيديا» واحدة لها قيمة وبقاء، إلى جانب ما سلف من المآسي، ذلك أنه ما من مفكر اليوم في العالم الغربي يؤمن حقًّا بوجود إله آخر غير الإنسان نفسه!

لقد كان آخر العهود بـ «التراجيديا»، كما يجب أن تفهم، هو القرن السابع عشر؛ فإنه على الرغم مما ذكرنا عن «كورني» و«راسين» فقد كانت لهما على الأقل من الإيمان

الديني بقية، هي التي استطاعت أن تُلقي في أعمالهم تلك الجمرة من الحرارة العلوية، وإن صلة «راسين» بطائفة «الجانسنست» الدينية، والشروح التي فسَّر بها النقاد بعض مآسيه، وخصوصًا «فيدر» على ضوء تعاليم تلك الطائفة؛ لمن الأمور التي أفاض فيها تاريخ الأدب!

وما من حاجة فيما أظن إلى الحديث عن مآسي «فولتير»! … فهذا الساخر المتشكك، ما كان في قلبه إيمان بغير عقله، وما كان يرتد بنظره إلى الإغريق، بقدر ما كان ينظر إلى «شكسبير»! … إن «فولتير» ليس إلا الممهد للعقلية الفنية الحديثة، والنموذج الأول للمفكر الغربي، والمؤلف الأوربي، في وضعه الحالي!

في هذا الجو، من القرن الحاضر، الخابي من سماته ذلك الشعور الديني بمعناه الغابر كنت أقرأ وأشاهد «التراجيديا» وأدرك بحاسة خفية جوهرها الحقيقي!

ما السر؟

ما من سرٍّ عجيب على الإطلاق؛ كل ما في الأمر أني شرقي عربي، لم أزل محتفظًا بقدر من إحساسي الديني الأول، لم أجتز ما اجتازته العقلية الأوربية، من تلك الفترات التي سبق ذكرها، موقفي أمام «التراجيديا» الإغريقية، موقفُ مفكر عربي، في القرن الثالث الهجري.

بهذا الإحساس عدتُ إلى مصر، ولم يمضِ قليل حتى كتبتُ قصة «أهل الكهف»، كان ذلك في عام ١٩٢٨م، وكان «جوق عكاشة» قد اختفى نهائيًّا من الوجود، فلم يقُم في ذهني خيال مسرحٍ بعينه، ولا ممثل بالذات، ولم أجد ما أبثُّه عملي غير الورق، وعندما يُعوِزُ الكاتبَ مسرح، يُنهض عليه أفكاره؛ فإنه يقيم في الحال مسرحه بين دفتي كتاب! … كان الذي قصدته من وضع «أهل الكهف»، هو إدخال عنصر «التراجيديا» في موضوع عربي إسلامي، «التراجيديا» بمعناها الإغريقي القديم الذي احتفظت به: الصراع بين الإنسان، وبين قوة خفية هي فوق الإنسان، وحرصت على أن يكون منبعي، لا أساطير اليونان بل «القرآن»؛ فإن المقصود عندي لم يكن مجرد أخذ قصة من الكتاب الكريم، ووضعها في قالب تمثيلي، بل كان الهدف هو النظر إلى أساطيرنا الإسلامية بعين «التراجيديا» الإغريقية، هو إحداث هذا «التزاوج» بين العقليتين الأدبيتين، ولم أشأ أن أصدِّر هذا العمل، عند نشره، بمقدمة حتى لا أكون أنا الموجِّه لتفكير القارئ، واللافت لنظر الغير؛ فقد كان الذي يعنيني هو أن أرى كيف يقع هذا العمل من نفوس قارئيه، بعيدًا عن أي توجيه أو إيحاء! … ومهما يكُن من أمر التفسيرات التي تناولت ذلك الكتاب؛ فإن الذي استقر في ضمائر أهل الأدب يومئذٍ هو أن شيئًا ما على أساس ما قد وُضع، ولم يشذَّ أحد من الأدباء عن اعتبار هذا العمل لونًا من الأدب العربي، مُثِّل أو لم يُمثَّل!

بهذا تحقق ذلك الغرض الذي أشرت إليه في مطلع هذه المقدمة وهو أن الأدب العربي استطاع أن يقبل هذا «الأدب التمثيلي» منفصلًا عن المسرح … وهي نتيجة عجيبة؛ فقد كان لشوقي — كما أسلفت — روايات يعرفها المسرح أولًا، قبل أن يعرفها الأدب في كتاب يقرأ … على أن من الميسور أن يلاحظ باحث أن «شوقي»، في رواياته التمثيلية لا صلة له على الإطلاق بالإغريق فهو يمضي فيها على نهج شعراء المآسي الفرنسيين. ناسجًا موضوعاتها — هو أيضًا — حول «التاريخ» و«الحب» كل في «مصرع كليوبترا» و«مجنون ليلى»، ولا جدال في أن الصراع بين عاطفة وعاطفة، أو بين إرادة وإرادة، أيسر أنواع الصراع إخراجًا أمام النظارة.

من ذلك تتبين الصعوبة في أن نُبرز روايات يدور فيها الصراع بين فكرة وفكرة على مسرح آخر، غير مسرح الذهن، ولكن هذا المسرح الذهني لا بُدَّ منه، ما دامت هنالك موضوعات، لا محيص من إبرازها، تقوم على أفكار مجردة وأشخاص غير مجسدة، فالصراع بين الإنسان وبين القوى الخفية التي هي أكثر من الإنسان؛ مثل «الزمن». أو «الحقيقة». أو «المكان» … إلخ، لا يمكن تجسيده حتى يلائم المسرح المادي؛ إلا إذا لجأنا إلى طريقة التجسيد الوثنية التي لجأ إليها «إشيل» مثلًا عندما جعل «القوة» و«البحر» أشخاصًا قائمة تتكلم، وهو أمر لا أظن العقلية العربية الإسلامية تستسيغه. وهي التي جردَت «الله» من كل تجسيد. وأجبرت ذهنها على قبوله؛ متمثلًا في «الفكرة» وحدها عارية منزهة عن كل غلاف كثيف خارجي.

على أن «إشيل» نفسه، على الرغم من تجسيده للقوى الخفية، قد حشره النقاد في زمرة المؤلفين، الذين يُقرءون في مقعد، خيرًا مما يُعرضون على مسرح … وتلك مسألة قد أثيرت. فيما يتعلق بـ «شكسبير» أيضًا … وهو إغراق في التعنت فيما أعتقد. فلقد قرأت لناقد يُدعى «بولنجيه» بحثًا، فيما يسمِّيه «المسرح في مقعد». أعرب فيه عن دهشته لما في روايات «شكسبير» من روح الكتاب أكثر مما فيها من روح المسرح! … كان من هذا الرأي الغريب أيضًا «ريمي دي جرمون». الذي قال: «ما من رواية لـ «شكسبير» إلا وقد خيبت ظني عند التمثيل!»

أمام هذه الآراء قام الناقد «تيبوديه» يقسم المؤلفين المسرحيين إلى فئتين: فئة تتخذ الحياة الإنسانية في ذاتها موضوع حركتها ونشاطها. وفئة تجعل من تلك الحياة نغمة فكرية. تلعب بها! … فئة تصور «حركة الآدميين» في الحياة. وفئة تصور «تفكير الآدميين» في الحياة! … والفئة الأولى في رأيه، هي التي يسهل عرضها على «المسرح المادي» وهو يدخل

فيها «شكسبير». على الرغم من أنغامه الفكرية في بعض رواياته ... أما من الإغريق فهو يدخل فيها «سوفوكل» و«إيروبيد». بينما الفئة الثانية يدخل فيها «إشيل».

نخرج من كل هذا على أن موضوع المسرحية هو الذي يحدد دائمًا نوع المسرح؛ فإذا قامت الرواية على «حركة الآدميين» كان مكانها «المسرح المادي»، وإذا قامت على «حركة الفكر» كان مكانها «المسرح الذهني».

وهنا يبدو سؤال: أليس من الممكن أن نعرض على «المسرح المادي» أمام النظارة، «تراجيديا إغريقية» مدثرة في غلالة من «العقلية العربية»، يبدو فيها الصراع بين الإنسان والقوى العليا الخفية، دون أن يتجرد الفكر فيها إلى حد يلحقها بالنوع الذهني من المسرحيات؟

للإجابة عن هذا السؤال عكفتُ وقتًا، ليس بالقصير، على دراسة «سوفوكل»، وانتهيتُ إلى انتخاب «أوديب» موضوعًا لاختباري!

لماذا اخترتُ «أوديب» بالذات؟ لأمرٍ قد يبدو عجيبًا؛ ذلك أني قد تأملتها طويلًا، فأبصرت فيها شيئًا لم يخطر قط على بال «سوفوكل»!

أبصرتُ فيها صراعًا ليس بين الإنسان والقدَر؛ كما رأى الإغريق، ومن جاء بعدهم إلى يومنا هذا، بل أبصرت عين الصراع الخفي الذي قام في مسرحية «أهل الكهف»!

هذا الصراع لم يكن فقط بين الإنسان والزمن، كما اعتاد قرَّاؤها أن يرَوا، بل هي حرب أخرى خفية قلَّ من التفت إليها ... حزب بين «الواقع» وبين «الحقيقة»، بين «واقع» رجل؛ مثل «مشلينيا» عاد من الكهف، فوجد «بريسكا»، فأحبها وأحبته! ... وكان كل شيء مهيأً يدعوهما إلى حياة من الرغد والهناء؛ فإذا حائل يقف بينهما، وبين هذا «الواقع» الجميل! ... تلك هي «الحقيقة»! ... حقيقة هذا الرجل «مشلينيا»، الذي اتضح لـ «بريسكا» أنه كان خطيبًا لجدتها! ... لقد جاهد المُحبان؛ كي ينسيا هذه «الحقيقة»، التي قامت تفسد عليهما «الواقع»! ولكنهما عجزا بواقعهما الملموس عن دفع هذا الشيء الغامض غير الملموس الذي يسمَّى «الحقيقة»!

«أوديب» و«جوكاستا» ليسا، هما أيضًا، سوى «مشلينيا»، و«بريسكا». لقد تحابا، أيضًا؛ فأفسد ما بينهما علمهما بحقيقة أحدهما، بالنسبة إلى الآخر! ... إن أقوى خصم للإنسان دائمًا هو: شبح! ... شبح يطلق عليه اسم «الحقيقة»، هذا هو باعثي على اختيار «أوديب» بالذات ... لي فيها نظرتي وفكرتي، ولكن بقي التنفيذ ... على أي وجهٍ من الوجوه أتناول هذه «التراجيديا»؟

هنا وقعت في الحيرة زمنًا، فأنا أعرف الجهد، الذي أمضَّ مَن سبقني في تناولها من الشعراء والمؤلفين، على مدى القرون! … فإذا تذكرتُ تصور «سنيكا» في «أوديب»، وإخفاق «كورني» في «أوديب» وضآلة «فولتير» بالقياس إلى «سوفوكل» في «أوديب»؛ أصابني دوار. فإذا تركت أولئك العباقرة من الشعراء، والتفت إلى من تناول «أوديب» من الناثرين المعاصرين، وما تعرضوا له من خيبة أو سقوط؛ نالني جزع، فقعدتُ حينًا يائسًا متكاسلًا، مؤجلًا إنجاز هذا العمل، حتى نهضتُ أخيرًا أشجع نفسي؛ فلأعمل وأخطئ خيرًا من أن أجزع وأقعد، ولتكن لي في أولئك المخفقين أسوة؛ فلأخفق مثلهم؛ فهم على كل حال قد أدوا واجبهم، وإن لهم الحمد مع ذلك؛ لأنهم تشجعوا وأقدموا وأخطأوا، واستطعت أنا الانتفاع من أخطائهم، لأتجنبها وأولِّي وجهي شطر ناحية أخرى، ربما كان فيها أيضًا نوع آخر من الخطأ … فليكن! … إن أخطاء الفنانين والأدباء لها أحيانًا من الفائدة ما يسمو على الصواب!

عرفت من الشعراء الأحياء — ممن تناولوا «أوديب» — الشاعر الإنجليزي «بيتس» والشاعر الألماني «هوفمانشتال»، والاثنان ما زادا شيئًا على مأساة «سوفوكلس».

ثم عرفت من الناثرين ثلاثة من الفرنسيين المعاصرين — تناولوا كلهم «أوديب» عن «سوفوكل»— أولهم: «سان جورج دي بوهلييه»، والثاني «جان كوكتو»، والثالث «أندريه جيد»!

أما «دي بوهلييه» فقد قطع قصة «أوديب» ووزعها على مناظر عديدة، ناهجًا في ذلك منهج «شكسبير» في مسرحياته، فما إن عرضت على المسرح حتى قال فيها الناقد «لوسيان دوبيش»:

> «بينما نجد — عند «سوفوكل» — أن «أوديب» مشغول بالحادثة التي يحركها ويعيش فيها، فلا وقت عنده للتأمل في مصيره؛ نجد «دي بوهلييه» يتركه وحده طويلًا، يناجي شكوكه وندمه ويقظة ضميره؛ مثل «هاملت»، أو «ليدي مكبث». من العبث أن نذكر «دي بوهلييه» أنَّ لا شيء يفوق في مأساة «سوفوكل» الخالدة … تلك القوة الدرامية الكبرى، المنبعثة من ذلك التكتيل للحركة، والتكديس للحوادث، في تلك الوحدة الوثيقة، والحيز الضيق! … إلخ».

لقد انتفعتُ حقًّا بهذا الخطأ؛ فقد كان خطر لي، أنا أيضًا، أن أضع قصة «أوديب» في مناظر عدة، كما فعلت في «شهر زاد»، وفي «سليمان الحكيم»، فوقاني الله شر هذا العمل،

برؤيتي التجربة تخفق على يد «دي بوهلييه»! ... أما «جان كوكتو» فقد وضع «أوديب» في مسرحية متعددة المناظر أيضًا، سمَّاها الآلة الجهنمية»، وعرضها على المسرح، ولم أشاهدها تمثَّل، ولم أقرأ لها نقدًا، ولكني أدركت من قراءتها، مطبوعة في كتاب، أن «كوكتو» فقد تأثر النظرية الإغريقية في أوديب تأثرًا سطحيًّا، ولكنه تأثر بـ «شكسبير» هو الآخر تأثرًا فنيًّا، فجعل روح والد «أوديب»، تظهر على الجدران كما ظهرت روح والد «هملت»! ... عجبًا لكل هذا التأثر في «أوديب» بطريقة «شكسبير»، دون التأثر بطريقة «سوفوكل» وهو قمة «الفن التراجيدي» المركز، بلا مراء!

ويأتي بعد ذلك «أندرية جيد» بقصته «أوديب»، وقد نحا فيها نحو «سوفوكل» ولكنه جعلنا نشعر، نحو «أوديب» بجلال لا ينبعث من صلة الإنسان، بما هو أكثر من الإنسان؛ بقدر ما ينبعث من صلة الإنسان بذاته.

لقد استطاع «أندريه جيد» أن يجعل من إيمانه بالإنسان مادة خشوع، تحل في النفس محل ذلك الخشوع للقوى الخفية العليا! ... إنه يلخص لنا، بصدق وإخلاص، كل عقيدة الأوروبي اليوم، أنَّ لا شيء في الكون غير الإنسان، ولا قيمة في الكون لغير الإنسان، وليس «أندريه جيد» وحده هو المسئول عن هذه العقيدة؛ فهي موجودة قبله، بنحو قرن من الزمان، منذ رأى «بالانش»، في شخصية «بروميثيوس» لـ «إشيل»: «الإنسان يكون نفسه بنفسه»، بل لقد رأى «إدوار شوريه في أوديب ما رآه «أندريه جيد»؛ فقد قال شوريه في كتابه «التطور الإلهي من «أبي الهول» إلى «المسيح»، الصادر في عام ١٩١٢م ما نصه:

> «أوديب» ليس ملهمًا، ولا متطلعًا إلى الأسرار، إنه الإنسان القوي المتكبر، الذي يُلقي بنفسه في خضم الحياة بكل ما في رغباته من نشاط، إرادة المتعة والقوة هي كل ما يسيطر عليه، وبهذه الغريزة الخالصة استطاع أن يحل لغز «أبي الهول» أو «الطبيعة»، الذي يلقيه على كل إنسان عند عتبة الوجود؛ فقد أدرك أن كلمة اللغز هي الإنسان ذاته! ...»

هذا نص فكرة «شوريه»، وهذا ما رآه «جيد» أيضًا في «أوديب»، التي أعتقد أنه لخص بها كل العقلية الأوروبية اليوم ... تلك العقلية، التي نستطيع أن نصعد بها راجعين إلى أيام «فولتير»؛ فهو الذي بدأ يدكُّ حصن الإيمان من القلوب، بما كان يقذف به الذات العلية من أنواع السخرية، وإن كان قد تسامح أحيانًا، فترك فكرة «الله» تعيش دون أن يتناولها بالإنكار الصريح، حتى جاء «رينان» في القرن التاسع عشر؛ فجعل يشكك الناس فيما

سماه الأفكار العتيقة عن «الله» قائلًا: «إن الناس يعيشون على أنفاس عطر، ينبعث من إناء فارغ!»

واجتاح «نيتشه» بعدئذٍ العقول والنفوس، بآرائه التي أنكر بها صراحة وجود أي عالم خفي، أو أي سلطان إلهي، مؤكِّدًا أنه لا يوجد شيء فوق الإنسان! وأن إرادة القوة فيه هي كل فضيلته وكل فردوسه، معلنًا: «لقد حل الإنسان الأعلى اليوم محل الإله، إن الإله قد مات!» على أثر ذلك تصدعت العقيدة الدينية في النفوس، فما عاد أحد يؤمن بشيء غير الإنسان! ... ذلك هو إيمان أوروبا اليوم، الذي لخَّصه «جيد» أبرع تلخيص في قصة «أوديب» وقد انتهى منه إلى انتصار الإنسان، حتى في محنته، على كل القوى الظاهرة والخفية؛ هكذا يرى الفكر الأوروبي المعاصر «الإنسان» وحده فقط في هذا الكون. وهو أمر، وإن أدركه عقلي، المتابع لتطورات العقل البشري؛ فلا يؤمن به قلبي الشرقي الديني! ... لقد رأيت أنا أيضًا، في قصة «أوديب» تحديًا من الإنسان للإله، أو القوى الخفية، ولقد أظهرتُ هذا التحدي على نحو أبرز، ولكني أبرزتُ كذلك؛ في عين الوقت، عواقب هذا التطاول؛ لأني ما شعرت قط يومًا أن الإنسان وحده، في هذا الكون!

هذا الشعور هو أساس عملي كله، ومن يطالع الثلاثين كتابًا، التي نشرتها دفعة واحدة، ربما أحس هذه الفكرة، تخيم عليها كلها؛ كما تخيم على مؤلفات «جيد»، فكرة الإنسان الوحيد في الكون، وربما استطاع القارئ المنقطع، أو الناقد المتخصص، أن يرى هذه الفكرة، أو هذا الشعور في أردية، وحنايا، واتجاهات، لم تخطر لي على بال!

إن القارئ أو الناقد، الذي يتتبع فكرة أو اتجاهًا، في مؤلفات كاتب، لم يعرف بعد في آدابنا العربية الحديثة؛ فالنقد الأدبي هنا لم يزل في طور النقد الصحفي الذي يتناول الكتاب، منفصلًا عن هيكل آثار المؤلف، وما من ريب في أنه سيعقُب هذه المرحلة طور أرقى، هو طور «النقد الإنشائي»، الذي يعكُف فيه الناقد على مجموع أعمال مؤلف بعينه؛ ليستخرج منها فكرة، وينشئ مذهبًا!

إن شعوري بأن «الشرقي» يعيش دائمًا في «عالمين»، على النحو الذي ذكرته في «عصفور من الشرق»، هو الحصن الأخير الذي بقي لنا؛ لنعتصم فيه صد تفكير «الغربي» الذي يعيش في «عالم واحد» هو عالم الإنسان وحده، وشعوري هذا ليس سوى امتداد لشعور فلاسفة الإسلام!

إن التجديد الجوهري، الذي جاءت به الفلسفة الإسلامية، وأثَّرت به على أوروبا، في القرن الثالث عشر الميلادي؛ ليس في أنها تفلت آثار «أفلاطون» و«أرسطو»، ولا في أنها

شرحتها وحدها وفسرتها؛ بل في أنها اطلعت بعدئذٍ على تفكير «مدرسة الإسكندرية»، وعلى «الأفلاطونية الجديدة»، وما اصطبغت به تلك الأفكار من روح ديني في «عهد المسيحية» الأول، ثم تناولت كل ذلك ومزجته — على الرغم من صعوبة المزج — ومزجت منطق «أرسطو» بالروح الديني، لا كما تلقته من «مدرسة الإسكندرية» بل كما طبعته بالطابع الإسلامي، بذلك عرفت أوروبا ما سمته «الفلسفة العربية» أو «الإسلامية» أي ذلك المذهب العجيب، الذي يقوم على عمودين، ما كان أحد يظن أنهما يقومان جنبًا إلى جنب: «العقل» و«العقيدة الدينية».

ليس غريبًا على مثلي إذَن أن يحتفظ بآثار تلك الفلسفة، وأن يراها تتمشى في دمه على الرغم منه؛ فإن اتصالنا بالحضارة الأوروبية كفيلٌ أن يفيدنا، في اجتلاب القوالب، وتجديد الثياب ولكنه غير قدير على اقتلاع الروح، ولا محو الطابع!

فأنا أتحرك دائمًا في عالمين، وأقيم تفكيري على عمودين، ولا أرى الإنسان وحده في هذا الكون! … إني أومن ببشرية الإنسان، وأرى عظمته في أنه بشر، بشر له ضعفه ونقصه، وعجزه وأخطاؤه؛ ولكنه بشر، يوحى إليه من أعلى!

هذا هو وجه الخلاف بيني وبين «أندريه جيد»، ومن سبقوه ممن ألَّهوا الإنسان، وجعلوه في عالم واحد، ربًّا لنفسه وللكون، حاكمًا بأمره، لا يسيطر عليه غير إرادته وعقله!

ولقد كان «جيد» مخلصًا في إجلاله للإنسان، وقد وضع «أوديب» في إطار من التقديس لكبرياء الإنسان ذهب فيه إلى حد الإيمان بهذا الصلف، والتمجيد لهذا التطاول؛ إطارٌ جليل، هز نفسي، وأمتع ذهني، وليس إلى إنكار ذلك من سبيل!

على أن الجلال الذي أحاط به «أندريه جيد» قصته لم يمنعني من رفض طريقته في الأداء؛ فهو جلال فكري محض، يُمتِّع أمثالي من محبي «الفكر المجرد» ولا يرى فيه بأسًا أولئك المتذوقون لآثار «المسرح الذهني»، ولو أنني تناولت «أوديب» — منذ عشر سنوات — لجردتها أنا أيضًا من كل شيء؛ إلا مما أردت أن أصبَّ فيها من آراء، هكذا فعلت في عام ١٩٣٩م بقصة «مشكلة الحكم»، التي وضعتها على أساس «أرستوفان»، ثم في قصة «بجماليون»!

ولكني اليوم أريد أن أُلقي بالًا إلى عناصر التمثيلية، من حيث هي شيء، يعرض على النظارة … لقد تساءلت أمام قصة «أندرية جيد»: لماذا لم يحتفظ لمأساة «أوديب» بجلالها المسرحي! … لكأنه قد استلَّ عامدًا كل ما فيها، من قيمة درامية، بلا موجب أحيانًا، فهذا التحقيق الذي قام به «أوديب» للكشف عن الحقيقة، هذا التحقيق الذي رأيت فيه — أنا

المحقق القديم — غاية البراعة في إدارة دفته، ومناقشة شهوده، ورأى فيه النظارة على مدى القرون مشهدًا مسرحيًّا من أشد المشاهد تأثيرًا على النفس، وتعليقًا للأنفاس! … لماذا اختزله «جيد» هذا الاختزال، واقتضبه وطواه؛ كما يُطوى اللغو من الكلام، ومضى بفكرته يسير بها إلى العقل صعدًا، دون سند من المواقف المثيرة؟!

من الخطأ إذَن أن نسمِّي قصة «جيد» مأساة، أنه ما قصد قط أن يعرض علينا «تراجيديا» في جمالها الفني، وجلالها العاطفي، ماذا يمكن أن نسمِّي عمله هذا إذَن؟

أغلب ظني أنه «تعليقات فكرية» على «أوديب» لـ «سوفوكل» أو أنه «تراجيديا ذهنية»، نُزعت منها كل عناصر «التراجيديا المسرحية»!

لذلك حرصت كل الحرص على أن أحتفظ لمأساة «أوديب» بكل قوتها الدرامية، ومواقفها التمثيلية، وكان عنائي كله في أن أعفي كل أثر لتفكير، يظهر في الحوار؛ حتى لا يطغى على الموقف أو يضعف من الحركة، كان جهدي هو أن أخفي الفكرة في تلابيب الحركة، وأن أطوي اللب في أعطاف الموقف، على أني صادفت من الصعاب ما لا أعتقد أني اجتزته؛ فلقد تذكرت نصح «سارسي» لنظارة «الكوميدي فرانسيز» أن يرجعوا قبل الحفلة إلى معجم في «الميثولوجيا الإغريقية»! … لا بُدَّ لي إذَن من أن ألخص ما جرى لـ «أوديب»، قبل بدء المأساة وأن أجرد القصة من بعض المعتقدات الخرافية التي تأباها العقلية العربية أو الإسلامية، وأن أخرج على قاعدة الوحدة في الزمان والمكان، التي تخضع لها «التراجيديا اليونانية»، خرجت على هذه القاعدة مرغمًا، وكان بودي لو احتفظت بها، ولكني رأيت جو الأسرة — في حياة «أوديب» — أمرًا لا ينبغي إغفاله؛ لأن على محوره تدور الفكرة، التي من أجلها تحيزت هذه المأساة بالذات، وجو الأسرة — عند «أوديب» — لا يمكن أن يجعل خارج البيت. حقًّا إن حوادث «التراجيديا الإغريقية» تقع دائمًا في ميدان عام، أو في الهواء الطلق؛ لأن روح الحياة اليونانية القديمة كان يتطلب، كما يقول «أوتوموللر»:

إخراج الحركة المسرحية من داخل المنازل إلى الخارج، فكل هامٍّ من الأحداث وكل عظيمٍ من الأمر؛ إنما كان يقع عند اليونان في مكان عام، وما كانت العلاقات الاجتماعية بين الناس، تنشأ في البيوت، بل في الأسواق والطرقات، مما اضطر شعراء الإغريق إلى ملاحظة تلك التقاليد في حياة الإغريق، عندما كانوا ينشئون آثارهم التمثيلية!

على أني فكرت — رغم ذلك — في إمكان المحافظة على هذه القاعدة، في هذه القصة، ولو أصرَّ على ذلك مخرج مسرحي، أُعطِي من سعة الحيلة، ما يمكِّنه من إظهار البيت وجو الميدان في آنٍ دون حاجة إلى تغيير في المناظر، أو خروج على قاعدة الوحدة في الزمان والمكان!

وبعدُ ... فإني لست أدري ما صنعت بهذه «التراجيديا»؟ ... هل أحسنت بإقدامي هذا، أو أسأت؟

وهل يسيغها الأدب العربي على هذا الوضع؟

لقد حاولت ... وهذا كل ما أملك!

الفصل الأول

(«الملك أوديب» مستندًا إلى عمود من أعمدة البهو في قصره ... وهو جامد كتمثال، يطيل النظر مفكرًا إلى المدينة، من خلال شرفة رحيبة! ... وتظهر الملكة «جوكاستا» بين صغارها الأربعة، تشير إليهم بالتمهل وتخفيف الوطء! ... بينما تهمس «أنتجونة»، وهي الكبرى، لأمها.)

أنتجونة (هامسة، وهي تتأمل «أوديب»): أماه! ... ما باله يرسل البصر هكذا إلى المدينة؟

جوكاستا: اذهبي إليه أنت يا «أنتجونة» وسرِّي عنه: فهو يصغي إليك دائمًا!

أنتجونة (تتجه إليه بهدوء): أبتاه! ... فيم تفكر وحدك؛ هكذا؟

أوديب (يلتفت إليها): أنت يا «أنتجونة»؟ ... (يرى الملكة وبقية الأبناء) وأنت يا «جوكاستا»؟ ... كلكم ها هنا ... حولي ... ما الذي جاء بكم الآن؟

جوكاستا: هذا الهم الجاثم على صدرك يا «أوديب» ... لا تقُل لنا إنه الطاعون الذي نزل بالمدينة! ... فأنت لا تملك لدفعه شيئًا! ... ولقد فعلت ما استطعت، وأسرعت في طلب «ترسياس» ليشير عليك بما يوحِي إليه اطلاعه على علوم البشر، وأسرار الغيب! ... فيمَ إذَن هذا الإطراق الطويل؟

أوديب: محنة «طيبة»! ... تلك المدينة، التي وَضعَت مصيرها في يدي!

جوكاستا: كلَّا يا «أوديب»! ... ليست محنة المدينة وحدها ... إني أعرفك كما أعرف نفسي. هنالك علة أخرى ... في نفسك انقباض أُطالِع أثره في عينيك!

أوديب: انقباض لا أدري له علة ... لكأن شرًّا مستطيرًا يتربص بي!

جوكاستا: لا تقل ذلك! ... إنما هي آلام الناس قد انعكس طيفها على نفسك الصافية ... نحن أسرتك يا «أوديب»، علينا الآن واجب التسرية عنك ... هلموا يا أولادنا! ... التفوا حول أبيكم، وبدِّدوا عن رأسه وقلبه هذه السحب القاتمة!

أنتجونة: أبتاه! ... أسألك شيئًا؛ لا تردني عنه ... قص علينا قصة ذلك الوحش الذي قتلتَه فيما مضى!

أوديب: أغلب ظني يا «جوكاستا» أنكِ أنت الموحية إلى أولادنا أن يسألوني ذلك دائمًا ... لقد سمعوا تلك الحكاية مني كثيرًا.

جوكاستا: ولماذا تضيق بذلك يا «أوديب»؟ ... إنها على كل حال صفحة من حياتك يجدر بأولادنا أن يُلمُّوا بها كل الإلمام ... إن كل أبٍ بطلٌ في نظر أبنائه ... فكيف بك وأنت البطل الحقيقي في نظر «طيبة» كلها ... ومع ذلك فكن على ثقة أن أولادنا هم الذين يتوقون إلى سماعها منك في كل حين ... انظر إلى عيونهم المتطلعة وإلى أنفاسهم المعلقة!

أنتجونة: أجل يا أبي ... قُص علينا؛ كيف انتصرت على الوحش!

أوديب: تريدين ذلك حقًّا يا «أنتجونة»؟ ... أوَلم تسأمي منها بعد؟ ... وأختك وأخوَاك؟

أنتجونة (تهز رأسها نافية، وكذلك الجميع)**:** لن نسأم أبدًا!

أوديب (يتخذ مقعدًا، وأولاده حوله)**:** إذَن فاسمعوا ... كان ذلك منذ عشرين عامًا! ...

جوكاستا (وهي تجلس بقربه)**:** منذ سبعة عشر عامًا ... فيما أذكر.

أوديب: نعم ... أصبت ... حدث في ذلك اليوم أني دنوت من أسوار «طيبة» ...

أنتجونة: من البداية يا أبتاه! ... قُص علينا من البداية!

أوديب: ليس لهذا صلة بحادث الوحش؛ ومع ذلك فليكن ما تريدون ... أنتم تعلمون أني نشأت مثلكم في قصر ملكي ... ووجدت مثلكم الحب والعطف في أحضان أبٍ كريم؛ هو الملك «بوليب»، وأم رءوم؛ هي الملكة «ميروب»! ... لقد ربياني وهذَّباني؛ كما يربَّى ويهذَّب أبناء الملوك ... إلى أن صرت شابًّا جلدًا قويًّا ذكيًّا! ... أحذق الفروسية وأهيم بالمعرفة! ... أجل يا «أنتجونة»! ... كان لي بريق عينيك، كنت محبًّا للبحث عن حقائق الأشياء ... ففي ذات مساءٍ، علمت من شيخٍ بالقصر أطلق لسانه الخمر، أني لست ابنًا للملك والملكة؛ فهما لم ينجبا قط الولد! ... وإنما أنا لقيط تبنياه! ... منذ تلك الساعة، لم يهدأ لي قرار، ولم أقعد عن التفكير لحظة في حقيقة مَنبتي ... فغادرت تلك البلاد، وهِمتُ على وجهي، باحثًا عن حقيقتي؛ حتى انتهى بي المطاف إلى أسوار «طيبة»!

أنتجونة: وهنا لقيتَ الوحش!

أوديب: نعم، يا ابنتي! ... وكان وحشًا مهولًا ... أسدًا ...

جوكاستا: له وجه امرأة! ...

أنتجونة: وله أجنحة نسر ... إنك تنسى دائمًا يا أبي أن تحدثنا عن أجنحته!

أوديب: نعم! ... نعم! ... كانت له أجنحة؛ كأجنحة النسر! وقد خرج عليَّ من الغاب! ...

أنتجونة: سائرًا، أم طائرًا؟ ...

أوديب: سائرًا؛ كالطائر ... وفتح فمه ...

أنتجونة: وطرح عليك اللغز! ...

أوديب: نعم! ... قبل أن يأكلني طرح عليَّ لغزًا ... ذلك اللغز الذي قيل إنه كان يطرحه على كل من لقيه من أهل «طيبة».

جوكاستا: وكلهم عجز عن حله! ... فكان يفتك بهم عندئذٍ، ويقتلهم لساعتهم! ... حتى أهلكَ عددًا كبيرًا من أهل المدينة! ... أجل يا «أوديب» لقد لبِث أهل «طيبة» زمنًا يتحاشون التخلف خارج الأسوار إلى مغيب الشمس؛ خوفًا من لقاء الوحش! ... لقد سمَّوه «أبا الهول»؛ فلقد ألقى الرعب في قلوب الناس طويلًا ... وكان زوجي الملك «لايوس» قد مات منذ قليل، وتركني في عنفوان العمر أعيش في برد هذا القصر ... أرتجف فَرقًا مما يشاع في المدينة عن «أبي الهول» وضحاياه ... كان أخي «كريون» في ذلك الوقت هو الوصي على العرش ... فلم يقوَ على دفع الكارثة، وهاج الشعب طالبًا الحماية من ذلك الخطر، ثم لم يلبث أن أعلن رغبته في أن يمنح عرش المدينة لمن يُنقذها من الوحش!

أوديب: ليس العرش وحده يا «جوكاستا» ... كانت هنالك مكافأة أخرى أثمن منه ... هي يد الملكة الأرملة ... هذا كله كنت أجهله عندما لقيت الوحش ... لو أني عرفت ذلك الجزاء الجميل الذي كان ينتظرني، تُرى ماذا كنت أصنع؟ ... ربما كان فؤادي اضطرب ويدي ارتجفت ولم أظفر بالنصر!

أنتجونة: وكيف مات الوحش؟

جوكاستا: عندما حل أبوك اللغز الذي لم يستطع أحد حله اغتاظ «أبو الهول» وألقى بنفسه في البحر! ... كنت أنا وقتئذٍ في قصري ها هنا ... أتلقى أحاديث الناس عن ذلك اللغز الذي يطرحه الوحش على ضحاياه ... ولا أدري ما هو؟ ... فما من أحد عاد إلينا حيًّا قبل أبيكم؛ ليخبرنا به ... ولست أكتم عنك الآن يا «أوديب» ... لقد كنت يومئذٍ أطرح على نفسي أنا أيضًا سؤالًا، بل لغزًا: تُرى من هو الظافر؟ ... وهل سأحبه؟ ... لطالما صِحت من أعماق نفسي في سكون الليل: «من الظافر؟» لا بالوحش ... بل بقلبي! ... قلبي الذي لم يكُن قد

عرف الحب ... رغم زواجي المبكر بالملك الطيب «لايوس»! ... لكن عندما رأيتك يا «أوديب» وأحببتك أدركت أن لغزي هو الآخر قد حُل!

أنتجونة: كيف طرح عليك «أبو الهول» لغزه يا أبتي؟

أوديب: قال لي، وقد نفش ريش جناحيه: «أيها القادم ... ماذا جئت تصنع ها هنا؟ ... فقلت له: جئت أبحث عن حقيقتي؟ ... فقال: إليك سؤالًا! ... إذا عجزت عن جوابه فإني أفترسك: «ما هو الحيوان الذي يمشي في الصباح على أربع وفي الظهر على اثنتين وفي المساء على ثلاث؟»

أنتجونة: لا تُجب أنت يا أبي ... دعني أنا اليوم أحل اللغز نيابة عنك ... لقد أجبته هكذا: «أيها الوحش الذي أرعب المدينة لن تغلبني! ... إن ذلك الحيوان الذي تسألني عنه هو «الإنسان»! ... فهو الذي في الصغر يحبو على يديه وقدميه، وفي الكبر يستوي ماشيًا على قدميه، وفي الشيخوخة يدبُّ على قدميه وعصا!

أوديب: الجواب كما ترين واضح يا «أنتجونة»، وإني لأعجَب كيف فات أكثر الناس رؤيته! ... ربما كنا نحمل كثيرًا من الأجوبة عما نسأل دون أن ندري أو نرى.

جوكاستا: لعل الوحش أراد أن يسخر من الإنسان الذي لا يرى نفسه! ... ولكنك أنت رأيت يا «أوديب» وأجبت ... وبهذا أكمدتَ الوحش وأخرستَه وألقيت به في البحر! ... ودخلت «طيبة» ... فوجدتها تستقبلك؛ لتُجلسك على عرشها وتمنحك يد ملكتها ... هكذا جئت إليَّ وعشتَ معي وأنجبتَ مني هذا النسل الطيب الجميل، وأعطيتَنا هذه السعادة!

أوديب: نعم! ... هذه السعادة التي غمرتني وأنستني ما كنتُ خرجتُ له وما كنتُ أبحث عنه!

جوكاستا: حقيقتك؟! ... ماذا يُهمنا من أمر هذه الحقيقة؟ ... ما دمنا سعداء! ... قلت لك كثيرًا: إياك أن تظنَّ أني كنت أوثرك من سلالة الملوك ... إنه لفخر لي ولأولادنا ألا تكون إلا من صفوة الأبطال!

من أجل هذا أحب أن تروي لصغارنا بطولتك وتُلقي عليهم درسك في كل حين! ... بل لستُ أُنكر أني — أنا أيضًا — أحب أن أسمع دائمًا هذه القصة منك!

إنها تذكرني بتلك اللحظات التي كان يترقبك فيها قلبي ... قلقًا مرتجفًا لا يدري أتظفر أنت بمفتاحه، أم يُلقي بنفسه في بحر العدم!

«أوديب»! ... زوجي! لكأنه كتب لي أن أرى السعادة كاملة، وأن تراها أنت كذلك بلا شائبة!

لقد كان لي من «لايوس» ولد ... ولكن الإله الذي أراد سعادتنا ولا ريب أوحى إليه أن ينبذ هذا الولد؛ لأنه سيكون شؤمًا عليه ... فدفع به عقب ولادته إلى من يقتله في الجبل ... وبهذا لم يقُم بيني وبينك اليوم طيفٌ ينغِّص عليك ما أنت فيه من هناء!

«أوديب»! ... ماذا بك؟ ... لقد عادت السحابة القاتمة، تخيم على وجهك!

أوديب: قلقي على هذا الشعب في محنته! لقد ارتعدتُ وأنتِ تلفظين كلمة «الهناء»! ... أحس شيئًا يخيفني الآن من هذه الكلمة! ... اسمعوا! ... ما هذا الصوت؟

(«جوكاستا» والأولاد يلتفتون إلى الشرفة.)

أنتجونة: إنهم يهبطون من التلال ويفيضون في الطرقات حاملين الأغصان!

جوكاستا: أجل يا «أوديب»! ... هم أهل «طيبة» آتون ولا ريب إليك حاملين أغصان الضراعة!

(ينظر «أوديب» من الشرفة صامتًا بين أسرته.)

الشعب (في الخارج يصيح)**:** أيها الملك «أوديب»! ... أيها الملك «أوديب»!

صوت (من بين الشعب في الخارج)**:** أيها الملك الجالس على عرش «طيبة»! ... إنك ترى الأفواج من شعبك، يتدفقون رجالًا ونساءً، أطفالًا وشيوخًا؛ ليرتموا على أعتاب بابك رافعين في أيديهم أغصان الضراعة، ترتجف فوق أبدانهم الخائرة! ... إن المدينة، كما ترى بعينك، قد عصفَت بها المحنة ... وإن الموت ليطيح بالقطعان في المراعي ويبطش بالأطفال في المهود! ... إن الطاعون يحصد من أنحاء ملكِك الأرواحَ وينثر الدمار هازئًا بقلوبنا الدامية ودموعنا الجارية!

«أوديب»! ... يا من أنقذت هذه المدينة، من «أبي الهول»؛ أنقذها اليوم من هذا الطاعون! ... إن الشعب الذي نادى بك بطلًا وأجلسك على عرش هذا الوطن — كي تدرأ عنه المحن — ليطالبك الآن بأن تهب لنجدته وأن تنهض لمعونته!

أوديب: شعبي التعس ... إني لست نائمًا عن آلامكم ولا غافلًا؛ فأنا أتوجَّع لما أنتم فيه أشد الوجيعة، ولست ناسيًا أنكم رفعتموني إلى هذا العرش لأحميكم، وأنكم تنتظرون مني عملًا ينقذكم ... فدعوا لي وقتًا للتفكير، والتدبير، والعمل!

الصوت (من الخارج)**:** أيها الملك! ... استخِر الإله! ... ها هو ذا كبير الكهنة يدخل قصرك ... أصغِ إليه!

(يلتفت «أوديب» وأسرته إلى باب البهو ... فيرون «كريون» كبير الكهنة داخلًا.)

الكاهن: يا «أوديب»! ... جئتُ أقول لك كلمة وأمضي! ... شعبك يتساقط من حولك كما يتساقط الورق عن الشجرة ... وإذا كان فرعك لم تسقط منه حتى الآن ورقة، فهذا لا يُلهيك، فيما نظن، عن الرثاء لحال الآخرين! ... ولكن الرثاء وحده لا يكفي ... والأمر — كما ترى — لا ينفع فيه حل الألغاز، ولا فك الأحاجي ... وليس لنا من مخلِّصٍ إلا الرجوع إلى الإله!

أوديب: وهل أنا الذي يمنعكم من الرجوع إلى الإله؟!

الكاهن: إنك لا تمنعنا! ... ولا تستطيع! ... ولكنك تبحث دائمًا فيما لا ينبغي البحث فيه، وتسأل دائمًا أسئلة لا يجب أن تطرح! ... إن وحي السماء عندك موضع فحص وتنقيب!

أوديب: لو كان في يدي التجرد من طبيعتي!

الكاهن: لا حاجة بك ولا بنا إلى ذلك ... لقد التمسنا من رجل آخر أن يَمضي إلى معبد «دلف» ليستخير الإله، فيما يخلُق بنا أن نصنع، حتى يرفع هذا الغضب عنا!

أوديب: ومن هذا الرجل الذي أوفدتموه؟

الكاهن: هو «كريون»!

جوكاستا: أخي؟!

الكاهن: إنه — فيما نعلم وتعلمون — رجل لا يجادل في الحقيقة، ولا يماري في الواقع ... ولن يقول للكهان في معبد «دلف» أقيموا لي البرهان المحسوس، على أن هذا الوحي هبط عليكم من الإله حقًّا، ولم يهبط من أذهانكم.

أوديب: يسرني أن يكون «كريون» موضع ثقتكم ... ولكني لم أفهم بعدُ عنك: ماذا جئت ترجو عندي!

الكاهن: كريون لا بُدَّ عائد بعد قليل ... فإذا جاء من المعبد بأمر؛ فهل أنت مستعد «يا أوديب» أن تنفِّذ هذا الأمر، إنقاذًا للمدينة؟

أوديب: فهمت الآن ... (بعد لحظة تفكير) أستطيع أن أجيبك يا كبير الكهنة! ... كل ما فيه إنقاذ المدينة لن أحجم عن تنفيذه!

الكاهن: أنصرف إذَن؛ لأعود إليك مع «كريون» بما يحمله من وحي علوي!

(يخرج كبير الكهَّان، ويبقى «أوديب» في أسرته صامتين.)

جوكاستا (بعد لحظة): رحمة بنا أيتها السماء! إني خائفة!

أوديب: لا تخافي! ... إني لست خائفًا ... ما من شيء يخيفني حقًّا إلا أن أرى خطرًا يدنو منك ومن أولادنا ... أما هراء هؤلاء الكهان ...

جوكاستا: لا تقُل ذلك يا «أوديب»! ... لا تقُل ذلك أمام أولادنا ... اعلم أني مدينة بسعادتي للإله!

أوديب: أواثقة أنتِ من ذلك؟

جوكاستا: كفَّ عن هذه الأسئلة المشئومة! إنك لم تَعُد تثق بشيء، منذ أن عرفت أنك لقيط! ... إنها كانت لك صدمة! ... لقد كنت نشأت على حب والدين، ما شككت قط في أنهما والداك! ... فلما انكشف لك القناع فجأة، عن زيف ما كنت تخاله حقيقة، انهارت ثقتك بالأشياء!

أوديب (ملتفتًا إلى الشرفة): صه! ... ما هذا الضجيج؟!

الشعب (في الخارج يصيح): أيها الملك «أوديب»! ... أيها الملك «أوديب»!

صوت (في الخارج بين الشعب): هذا «ترسياس» قد أقبل ... استشره؛ فإنه يوحَى إليه من السماء!

(يدخل «ترسياس» الضرير يقوده غلام.)

ترسياس: بعثتَ في طلبي يا «أوديب»؟

أوديب: نعم!

ترسياس (وهو يترك يد الغلام، ويشير إليه بالخروج): هل نحن وحدنا؟

(«جوكاستا» تقود أولادها، وتخرج بهم.)

أوديب (وقد رأى البهو يخلو): نحن الآن وحدنا!

ترسياس: أعرف لماذا دعوتني ... وما بي حاجة إلى وحي السماء؛ لأقرأ ما في نفسك ... الشعب يطالبك بإنقاذه، وليس علاج الطاعون هو وحده الذي يثير همَّك ... ولكنه الخطر القائم حولك ... الكهنة لا يحبون تفكيرك ويضيقون بعقليتك ويأنسون بِمِثلِ «كريون»! ... والظروف في «طيبة» اليوم تماثل الظروف التي فزت فيها بالملك! ... ظروف تلائم الانقلاب؛ لأن كل محنة تزلزل سواد الشعب، إنما تزلزل في عين الوقت قوائم العرش!

أوديب: وهل تظن «كريون» يستطيع أن يقضي على الطاعون؛ كما استطعت أنا أن أقضي على الوحش؟!

ترسياس: من يدري؟ ... إن «كريون» ذهب يلتمس الوحي، وعما قليل يعود بما يصدر إليه من أمر!

أوديت: وأنت يا «ترسياس»؟ ... يا من يؤمن الشعب بأنه ملمٌّ بعلوم البشر، محيط بغيوب السماء؛ أما من علاج لديك يزيل هذه المحنة التي نزلت بالناس؟

ترسياس: لقد تقدَّمت بي السن! ... وإنه ليجمُل بي الآن أن أراقب ما يجري من بعيد ... امضِ وحدك في طريقك يا «أوديب»!

أوديب: تريد أن تتخلَّى عني الآن وأنت ترى الخطر المقبل عليَّ وتعرف الظروف التي ستعصِف بملكي؟!

ترسياس: لكَ يا «أوديب» إرادة، وفي يدك قوة، وفي عينيك نور ... ماذا تبغي من هرِم مثلي، واهن القوى، كفيف البصر؟!

أوديب: أدرك ما وراء كلامك! ... إني أعرفك يا «ترسياس»! ... مثلك لا ينفُض يده مما حوله إلا لأمر!

ترسياس: سأنفُض يدي هذه المرة؛ لأرى ما يحدث!

أوديب: لتراني أسقط، كما رأيتني أرتفع؟!

ترسياس: إنها لمتعة كبرى أن أرى ماذا يجري، عندما أدع الأمور في يد القدر!

أوديب: لن تهنأ بهذه المتعة «يا ترسياس»! ... فإني أعرف كيف أفسد عليك غرضك ... إنك تحسب زمام عرشي في يدك ... ولكن قناعك في يدي ... أمزقه أمام الناس؛ وأكشف عن وجهك، عندما أشاء!

ترسياس: مهلًا يا «أوديب»! ... لا تدع الغضب يذهب بصوابك!

أوديب: كن على ثقة أني لن أتيح لك اللهو بي؛ بل إني لقدير على أن أجعل الناس يلهُون بك!

ترسياس: ماذا تستطيع أن تقول للناس؟

أوديب: كل شيء يا «ترسياس»، كل شيء! ... فأنا لا أخشى الحقيقة ... بل إني لأنتظر اليوم الذي أطرح فيه عن كاهلي تلك الأكذوبة الكبرى التي أعيش فيها منذ سبعة عشر عامًا!

ترسياس: لا تكن مجنونًا!

أوديب: قد أجنُّ في لحظة ... وأفتح أبواب هذا القصر، وأخرج إلى الشعب صائحًا: اسمعوا يا أبناء «طيبة»! ... اسمعوا قصة رجل أعمى، أراد أن يهزأ بكم، وقصة رجل حسن النية؛ سليم الطَّوية، أشترك معه في الملهاة! ... إني لست بطلًا ... ولم ألقَ وحشًا له جسم

أسد، وجناح نسر، ووجه امرأة، يطرح ألغازًا ... هذا خيالكم الساذج، أحَبَّ تلك الصورة، وأذاع ذلك الوهم! ... ولكن الذي لقيت حقًّا هو أسد عادي، كان يفترس المتخلفين خلف أسواركم، استطعت أنا أن أقتله بهراوتي، وأن أُلقيَ جثته في البحر ... وأن أخلصكم منه ... غير أن «ترسياس»، هذا الضرير البارع، أوحى إليكم — من تلقاء نفسه لا من لدن الإله — أن تنصبوا ذلك البطل ملكًا عليكم؛ لأنه يومئذٍ ما كان يريد لكم «كريون» ملكًا! ... نعم! ... هو الذي أراد ذلك ودبَّره، وهو الذي علَّمني حل تلك الأحجية، عن الحيوان الذي يحبو على يدين وقدمين!

ترسياس: صه! ... صه! اخفض صوتك!

أوديب: وهو الذي أوحى قديمًا إلى «لايوس» بقتل ابنه في المهد، موهمًا إياه، بأن السماء هي التي ألهمته أن الولد إذا كبر، قتل أباه؛ لأن «ترسياس»، هذا الأعمى الخطِر، صمم بإرادة من حديد أن يُقصي — عن عرش «طيبة» — وريثها الشرعي! ... لقد أراد أن يكون العرش لرجلٍ غريب؛ فتمَّ له الأمر الذي أراد.

ترسياس: قلت لك اخفض من صوتك يا «أوديب»!

أوديب: أجل ... هذا هو «ترسياس» ... الذي يُلقي في روعكم أنه يقرأ صفحات الغيب، ويسمع أصوات السماء، وهو لا يسمع في حقيقة الأمر إلا صوت إرادته، ولا يطالع إلا سطور حسابه وتدبيره، لقد شاء — وهو فخور — أن يغير مجرى الأمور، ويبدل فيما استقرت عليه نظم الوراثة، وأن يتحدى إرادة السماء، التي أخرجت من صلب «لايوس» خليفة؛ ليقِيم بيده الآدمية على العرش شخصًا، هو وليد رأسه، وصنيعة فكره!

ترسياس: هدئ من روعك يا «أوديب»! ... فما يُطفئ مصباح العقل غير عواصف النفس!

أوديب: أعَرفتَ الآن ما في يدي أن أصنع بك؟

ترسياس: وبنفسك؟!

أوديب: لستُ أخاف على نفسي من الحقيقة! ... ولو طوحتَ بي من فوق العرش ... إنك تعرف أن الملك ليس بُغيتي! ... لقد كنت في «كورنت»، مهدي الذي نشأت فيه، بين أحضان «بوليب» الطيب، و«ميروب» الرحيمة! ... وما كان لهما من مطمع إلا أن يُقنعا الناس أني ابنهما، وأن يُجلِساني على عرشهما ... ولكني هربت من ذلك الملك! ... باحثًا عن حقيقة أصلي! ... لقد هربت من «كورنت»؛ لأني لم أطِق الحياة في أكذوبة! ... وجئت هنا ... فإذا بي أعيش في أكذوبة أضخم!

ترسياس: لعل الأكذوبة هي الجو الطبيعي، لحياتك!

أوديب: وحياتك أنت أيضًا ... يا «ترسياس»!

ترسياس: وحياتي أنا أيضًا! ... وحياة كل بشر! ... لا تنسَ أنك بطل هذه المدينة! ... لأن «طيبة» في حاجة إلى بطل ... وهي التي آمنت بأسطورة «أبي الهول»! ... فحذارِ أن تُفجع الشعب في عقيدته!

أوديب: ما من شيء يرغمني على الصمت إلا خوفي أن أُفجع زوجي وأولادي، في إيمانهم ببطولتي! ... ولا شيء يؤلمني إلا اضطراري إلى هذا الكذب الطويل عليهم! إني لأتحامل على نفسي، حتى لا أصيح بهم، وهم يروون أمامي قصة «أبي الهول»: «لا تصدقوا هذا الهراء! ... إن الحقيقة يا أولادي هي ...»

ترسياس: حذارِ يا «أوديب»! ... حذارِ! ... ما أشدَّ خوفي أن تعبث أصابعك الطائشة بقناع «الحقيقة»! ... وأن تدنو أناملك المرتجفة من وجهها وعينيها! لقد هربت من «كورنت»، هائمًا خلفها، ولكنها أفلتت منك! ... ولقد جئت «طيبة» تعلن أنك مجرد عن الأصل والنسب؛ لتكشف للناس عنها ... فابتعدت هي عنك يا «أوديب» ... دعك يا أوديب من «الحقيقة» ... لا تتحدَّاها!

أوديب: ولماذا تتحدى أنت السماء يا «ترسياس»؟ ... أتُراك أصلب مني عودًا، وأمضى عزمًا، وأحدَّ بصرًا؟!

ترسياس: لست أحدَّ منك بصرًا يا «أوديب» فأنا لا أرى شيئًا ... ولا أبصر في الوجود إلا أرادتنا ... لقد أردت، فكنتُ أنا الإله ... ولقد أرغمتُ «طيبة» حقًّا على أن تقبل الملك، الذي أردته أنا لها ... فكان لي ما أردت؛ كما ترى.

أوديب (بنبرة تهكُّم)**:** اخفض صوتك يا «ترسياس»!

ترسياس: لا تسخر مني! ... ولا تحسبن — لو صح عزمك على تنفيذ وعدك — أني عاجز عن مواجهة الناس! ... افتح أبوابك إذا شِئت ... واخرج إلى شعبك، وارفع عقيرتك فيه بما تشاء! ... عندئذٍ تعلم ما سيقول «ترسياس»!

أوديب: ماذا ستقول؟

ترسياس: سأصيح بملء فمي:

«أيها الشعب! ... إني لم أفرض إراداتي لمجدٍ أطمع فيه، ولكن لرأي أومن به هو: أن تكون لكم إرادة! ... ما من حقد كان بيني وبين «لايوس»، وما من ضغن كان بيني وبين «كريون»؛ إنما أردت أن أطوي صفحة المُلك في هذه الأسرة العريقة؛ لأجعلكم أنتم

تختارون لكم ملكًا، من عرض الطريق، مجردًا من الحسب والنسب، لا سند له إلا خدمته لكم، ولا لقب له إلا بطولته فيكم ... ذلك أنه لا توجد في أرضكم — ولا ينبغي أن توجد — إلا إرادتكم أنتم!

أوديب: أو إرادتك أنت! ... أيها الضرير البارع! ... إنك تعلم أن الشعب لا يريحه أن تكون له إرادة! ... وهو يوم يراها في يده، يسرع فيعطيها لبطل من نسج أساطيره، أو لإله مدثر بغمام أحلامه! ... كأنما هو يضيق بحملها، ولا يقوى على الاحتفاظ بها، ويود التخلص منها وطرح عبئها! ... ولكنك رجلٌ أعماك الغرور، لا تسعى حقًّا إلى مجد ظاهر؛ غير أنك تريد أن تكون أنت منبع الأحداث، ومصدر الانقلابات، ومحرك القُوى، التي تغير وتبدل، في مصائر الناس، وعناصر الأشياء! ... إني لأرى فيك هذا التطاول المستتر، وأقرأ في نفسك هذا الصلف الخفي!

ترسياس: من حقي أن آتيه قليلًا يا «أوديب»! ... فأنت لا تنكر أني قد نجحت، وما أنت على هذا العرش إلا آيةٌ، من آيات إرادتي!

أوديب: سئمت سماع ذلك منك! ... لقد دعوتك؛ لأصغي إلى رأيك في هذه المحنة، لا لأصغي إلى أنشودة فَخَارك! ... إن موقفك مني اليوم لا أتبيَّنه ... هل أنت معي؟ ... هل انقلبت ضدي؟ ... لست أرى على أي أساس الآن قد أقمتَ إرادتك!

ترسياس: ذلك ما سوف تعلمه في حينه يا «أوديب»!

أوديب: متى؟

ترسياس: عندما يأتي «كريون» بذلك الوحي، من معبد «دلف» ... من حُسن الرأي أن أعرف شيئًا عن إرادة السماء قبل أن أشرع في تكوين إرادتي!

أوديب: أفي مقدوري أن أعتمد على مؤازرتك لي، يا «ترسياس»؟!

ترسياس: إنه لمن الحُمق يا «أوديب» أن تخشى من جانبي أمرًا!

أوديب: ننتظر إذَن ما يأتي به «كريون»!

ترسياس: دعني الآن أذهب ... إلى أن يجيء أوان العمل ... ولن أقول لك الساعة إلا هذه: «واجه مصيرك يا «أوديب» ... ولا تخف ... فأنا معك.»

أوديب: أواثق أنت يا «ترسياس»؟

ترسياس: أين غلامي الذي يقودني؟

أوديب (كالمخاطب لنفسه)**:** مصيري؟! ... ما هو مصيري؟

ترسياس: أين الغلام؟

(يتَّجه «أوديب» إلى الباب ويفتحه، ويدخل الغلام، فيقود «ترسياس» إلى الخارج ... أما «أوديب» فيبقى وحده ويُسند رأسه إلى عمودٍ مُطرقًا ولا تلبث «جوكاستا» أن تدخل وحدها.)

جوكاستا (تبحث بعينها في البهو): انصرف النبي «ترسياس»؟

أوديب (يلتفت إليها): نعم!

جوكاستا: عسى أن يكون قد أخبرك بما يزيح هذه الغمَّة، ويزيل هذه المحنة!

أوديب (كالمخاطب نفسه): لا ينبغي أن أعتمد إلا على يدي هذه! ... يدي هذه، التي تعرف كيف تبطش بكل من يتعرَّض لي ولكم بسوء! ... وحشًا كان أو بشرًا أو إلهًا!

جوكاستا: لا تُهِن الإله يا «أوديب»! ... أنت مدين له بسعادتنا ... وهو لا يمكن أن يريد بك شرًّا ... فهو الذي قادك من «كورنت» إلى هنا ... حيث وجدتني ... وعشنا هذه الحياة الرضية، وأنجبنا هؤلاء الأولاد البررة!

أوديب: ما عُدتُ أرى شيئًا فيما يكتنفني من ضباب! كل ما أعرف هو أن كارثة تُهددني ... من أي جهة؟ ... لا أدري! من أي يد؟ ... لا أدري! إني كأسد في غابة، يُحس من حوله شباكًا منصوبة، لا يعلم موضعها، ولا واضعها! ... إني أتلمَّس كالأعمى، وأتحسس! ... فلا أُبصِر شيئًا، ولا أحدًا! ... إنما أشم رائحة خطر يدنو مني!

جوكاستا: حبُّك لنا يا زوجي الحبيب، هو الذي يُخيل إليك هذا الوهم ... إن الطاعون لن يدنو من بيتنا! ... ولن يمسَّ أحدًا من صغارنا! ... إنما هو وباء آخر، أرى أنك ناقله إليَّ — ولا ريب — ذلك القلق الذي يثير ساكنك! ... أنا أيضًا يا «أوديب»، يملؤني ذلك الانقباض المروِّع؛ حتى لأكاد أشعر كأن شيئًا غليظًا يخنقني ... هنا في عنقي ... فلا أقدر على التنفس ... وأُحس كآبة مظلمة تغرق فيها نفسي، كما يغرق ميت في ظلام قبر!

أوديب: صه! ... لا تذكري الموت يا «جوكاستا»!

جوكاستا: أرأيت كيف يزعجك انقباضي؟! ... كما يزعجني قلقك وهمُّك! ... يَحسن بنا يا «أوديب» أن نطرد عنا هذه الأشباح! ... ما من ريب أن هذا الجو المشبَع بالشقاء حولنا في هذه المدينة، قد نشر في نفوسنا هذه السحب القاتمة المكفهرة!

أوديب: ربما!

جوكاستا: مهما يكن من أمر، فإن من واجبنا التجلُّد وإظهار البشر؛ رحمة بأولادنا!

أوديب: نعم! ... أين أنتجونة؟

جوكاستا: هذه البنت يا «أوديب»، تؤمن بك أكثر من إيمانك بنفسك ... لقد تركتها الساعة، وهي تقول لإخوتها: إنك لا بُدَّ منتصرٌ على الطاعون، كما انتصرت على «أبي الهول»؛ لأن الإله لم يَضعك على هذا العرش عبثًا!

أوديب (في شِبه همس): ابنتي العزيزة!

جوكاستا: إنها تعتقد أن مصيرها معلَّق بمصيرك ... ولطالما قالت لي: إنها لا ترجو من غدها شيئًا؛ إلا أن تعيش في معبد بطولتك، وأن ترى الدنيا كما تراها أنت! ... وأن تكون لها عيناك، تبصر بهما ما في الحياة من أحجيات وأسرار وألغاز!

أوديب (كالمخاطب لنفسه): وأنا أتمنى أن تكون لي عيناها، تبصران لي ما في النفس؛ من طمأنينة، وما في القلب؛ من صدق، وما في الوجود؛ من صفاء!

جوكاستا (تتسمع): أصغِ يا «أوديب»! ... ما هذه الضوضاء!

الشعب (في الخارج يصيح): جاء «كريون»! ... جاء «كريون»!

أوديب (ناظرًا إلى جهة الشرفة): نعم! ... جاء! ... تُرى، ما الذي جاء به أخوك؟

جوكاستا (وهي ناظره إلى وجهة الشرفة): لا بُدَّ أنه جاء بنبإ سار! ... فقد عقد على جبينه إكليلًا من الزهر!

أوديب (عند الشرفة): وهذا كبير الكهنة معه ... وهما يشقَّان الطريق، بين جموع الشعب ... ويشيران إلى الناس بالتحية!

جوكاستا: إنهما يدلُوان من باب القصر ... سأذهب أنا؛ لأدعكم تعكفون على ما فيه صلاح المدينة!

أوديب: إني أتحرَّق شوقًا إلى معرفة ما جاء به!

جوكاستا: أرجو أن تعلم منه الآن ما يقرُّ في نفسك الراحة، ويشيع فيها الهدوء (تنصرف).

أوديب (في همس): نعم! ... سأعلم الآن! (يدخل «كبير الكهنة» و«كريون».)

الكاهن: هذا «كريون» قد عاد من معبد «دلف» ... بقول عظيم، آثرت أن يُفضي به إليك، في خلوة يا «أوديب» ... إذا أذنت له في الكلام!

أوديب: إني مصغٍ إليه ... فليُفضِ إلينا بكل ما لديه!

كريون: إليك يا «أوديب» ما انتهى إليه علمي ... لقد كشف لنا الوحي عن سرِّ هذا الغضب، الذي أنزلته السماء بأرضنا.

أوديب: ما هذا السر؟ ... أسرع!

كريون: فساد على هذه الأرض، يجب أن يُزال ... وإلا كان مصيرنا نحن إلى زوال!

أوديب: أي فساد؟!

كريون: إثمٌ يدنس «طيبة» لا بُدَّ من محوه!

أوديب: أفصِح!

كريون: دم على أرضنا قد سُفك، ولا مفرَّ من غسل ذلك الدم بالدم!

أوديب: دم من؟ من الذي سفك دمه؟

كريون: «لايوس»! ... قبل أن تأتي إلينا، كان علينا ملك، يسمَّى «لايوس»!

أوديب: أعرف! ... أعرف! ... أعرف اسمه ولم أرَه قط!

كريون: هذا الملك مات ... مقتولًا!

أوديب: مقتولًا؟!

كريون: وإنَّ أمر الإله صريح ... يجب أن يُقام العدل؛ وأن يُثأر من القاتل!

أوديب: إذا كان هذا كل ما جئتَ به فهو حق ... ولكن هذه الجريمة فيما أرى قديمة العهد!

كريون: مضى عليها نحو سبعة عشر عامًا!

أوديب: وهل من الميسور — بعد هذا القدر من السنين — أن نتعقب آثارها؟ ... وأن نُميط القناع عن وجه القاتل؟!

كريون: قال الإله: ابحث تجِد!

أوديب: ليس أحبُّ إليَّ من البحث ... وما حياتي كلها سوى بحث ... وما دام الإله — كما تقول — هو الذي يأمرني الآن بالبحث والتنقيب، فلن يجدني إلا مطيعًا ... أسمعتَ مني يا «كبير الكهان»؟

الكاهن: سمعت ... وأرجو أن تمضي إلى النهاية، في بحثك عن القاتل!

أوديب: ها أنا ذا أبحث من الفور! ... أخبرني يا «كريون»! ... أين قتل «لايوس»؟ ... أفي قصره؟ أم في المدينة ... أم في خارجها؟

كريون: كان «لايوس» قد غادر «طيبة» حاجًّا إلى معبد «دلف»؛ ليستشير الوحي — كما كان يقول — في أمر ولده الذي أسلمه للموت قديمًا بأمر السماء!

أوديب (كالمخاطب لنفسه): نعم ... يا لذلك الملك المسكين! وبعد؟

كريون: ليس هنالك بعدُ ... إنه لم يَعُد إلينا، منذ ذلك اليوم الذي ذهب فيه!

أوديب: أوَما من شاهدٍ رأى أو سمع شيئًا عما وقع له!

كريون: كل الشهود قد طواهم الموت ... ما خلا واحدًا، استطاع أن ينجو بجلده ... وما علِمنا منه إلا أمرًا واحدًا.

أوديب: ما هو؟

كريون: لقد روى أن جماعة من اللصوص قطعوا الطريق على الملك «لايوس» وقتلوه مع حاشيته!

أوديب: أوَيجرؤ لصوص، على مثل هذا الاعتداء، على ملك؟!

كريون: هذا ما رُوي لنا!

أوديب: ما أحسَب أولئك، يعتدون على الملك! ... ما لم يكن أحد ها هنا ... قد دفعهم إلى ذلك دفعًا، وحرضهم تحريضًا، ونقدهم على ذلك ثمنًا!

كريون: هذا ما خطر أيضًا على بالنا في ذلك العهد!

أوديب: ومع ذلك، ما فعلتم شيئًا؛ للبحث عن القتلة، أو الكشف عن اليد التي حركت الجريمة؟

كريون: لقد كنا في ذلك الوقت مشغولي البال، منهوبي الخاطر، بكارثة أروع: دهمتنا وأقضَّت منا المضاجع!

أوديب: أية كارثة أعظم من قتل ملككم، الجالس على عرشكم؟!

كريون: «أبو الهول» ... لقد ظهر في ذلك الوقت، يقتل الناس بألغازه خلف أسوار «طيبة»!

أوديب: نعم! ... نعم! ... يا لكم جميعًا من حمقى! ... كل شيء يتضح الآن لعيني! ... إني أكاد أرى المدبِّر لكل ذلك ... وأعرف اليد التي حرَّكت، والإرادة التي دفعت ...

الكاهن: ماذا تقول يا «أوديب»؟! ... أعِد — مرة أخرى — ما لفظَت شفتاك؟!

أوديب: لا شأن لك بما لفظَت شفتاي! ... إنكم تنتظرون مني عملًا، وتريدون عدلًا! ... إن قاتل «لايوس» يجب أن يقدَّم إليكم ... حتى ولو كان في ذلك ما أكره! ... حقًّا! ... لقد أصبتم! ... ما كان يخطر لي على بال، أن قوائم عرشي غائصة في دماء ملك! ... وما كنت إخال من أراد ذلك، يبلغ به الأمر حد الجريمة! ... لن أتردد! ... نعم! ... أسامعون أنتم؟ ... لن أتردد في تسليم القاتل ... لا إنقاذًا لـ «طيبة» وحدها، بل إنقاذًا لضميري! يا كبير «الكهان»! ... اذهب، وأعلن الناس: أني مبادر إلى تنفيذ ما جاء به «كريون» سأدفع إليهم بالقاتل!

الكاهن: أتعرف يا «أوديب» من هو القاتل؟!

أوديب: ليس من العسير عليَّ أن أعرف الآن ... اذهبا الساعة، واتركا الأمر لي! ... عجبًا! ... ما بالكما قد جمُدتُما في الأرض؛ كتمثالين؟!

الكاهن: أواثق أنت من أنك ستقتصُّ من قاتل «لايوس»؟!

أوديب: أتشكُّ في ذلك أيها الكاهن؟ ... مهما يكن قدْر هذا الرجل فيكم، فإني مُسلمه إليكم؛ لينال جزاء ما اقترفت يداه! ... هذا وعدي الذي لن أرجع فيه أبدًا ... مهما يشقُّ على نفسي الوفاء به ... فكل عزيز عليَّ يهون أمام هذه الجريمة الشنعاء! ومن ذا يطمئن — بعد اليوم — إلى إنسان، اجترأ على قتل ملك! ... سأكشف عن وجهه القناع، وأقدِّمه إلى العدالة، حتى ولو كان في ذلك وبالٌ عليَّ، وهلاكٌ لي!

الكاهن: معرفتُك للمجرم يا «أوديب» قد طرحت عنا عبئًا ثقيلًا!

أوديب: أي عبء؟

الكاهن: عبء الإفضاء باسمه إليك!

أوديب: أوَكنتما تعرفان، أنتما أيضًا، من هو؟

الكاهن: كنا نعرف! ... فلقد جاء باسمه «كريون»، فيما جاء به من معبد «دلف»!

أوديب: أوَلم تدهشا، عندما عرفتما المجرم؟

الكاهن: كل الدهش يا «أوديب» ... فهو آخر من كان يرقى إليه الظن!

أوديب (كالمخاطب نفسه)**:** نعم! ... ذلك الرجل الجليل القدر ... الرفيع المكان ... المبجَّل من كل إنسان!

الكاهن: إنه لَكذلك حقًّا! ... وإنه ليحزننا أن يكون هو المقترف لِمثل هذا الإثم.

أوديب: حزني لا يقلُّ عن حزنكما ... ولكن العدالة فوق المراتب! ... ودم القتيل يجب أن يُغسل بدم القاتل ... كذلك أمرتك السماء يا «كريون» ... وإني لهذا الأمر مطيع!

الكاهن: ما كنا نحسبك تطيع أمر السماء، بهذه السرعة! ... فاغفر لنا ما سلف من سوء الظن بك ... فأنت أعظم نفسًا مما كنا نتخيل ... ولكن، هل لنا أن نسألك عمَّا أسكتك، طول هذا الزمن، عن القاتل؟

أوديب: كنت أجهل كل شيء، عن هذه الجريمة ... حتى اليوم!

الكاهن (ناظرًا إلى «كريون»)**:** ماذا تقول يا «أوديب»؟

أوديب: لماذا تتبادلان هذه النظرات؟!

الكاهن: إنا لنعجب كيف تستطيع أنت أن تجهلها؟

أوديب: وما وجه العجب؟

الكاهن: أنت يا «أوديب» أوثق الناس صلة بسرِّ الجريمة!

أوديب: إذا كنتم تقصدون «جوكاستا»، فثقوا أنها لا تعلم من أمرها شيئًا، وإذا كنتم تقصدون صلتي بالقاتل أو المحرِّض على القتل، فإنه ليدهشني كيف أنكم أنتم ما شككتم فيه قط، طول هذا الزمن، وهو قائم بينكم موضعًا للثقة؛ مرجعًا للمشورة!

الكاهن: وهل كنت تريد أن نرتاب في هذه الذات الرفيعة بغير دليل؟ وأن نتهمَّ هذا المقام الجليل، بغير أمر من الإله، أو وحي من السماء؟!

أوديب: الآن وقد عرفتم وحي السماء، وانكشف لكم النقاب عن وجه القاتل، فهاكُم قراري: قد حق الجزاء على الآثم، لقد أراد أن يغير بيده المصائر والأقدار ... فلم يقُم أمام إرادته شيء ... حتى ولا الضمير! ... اذهبوا إليه ولا تحجموا ... وألقوا في وجهه الاتهام صريحًا ... دون أن تأخذكم من قداسته رعدة ... ولا من جلاله روعة!

الكاهن (ناظرًا إلى «كريون»): أوَتأذن لنا في ذلك حقًّا يا «أوديب»؟!

أوديب: مرة أخرى تتبادلان هذه النظرات! ... ما ظنك بي أيها الكاهن! ... أوَتحسبني لا أقوى على تنفيذ هذا الأمر؟ وأنت يا «كريون»؟ ... أما عهدتني قبل اليوم خليقًا بملاقاة الصعاب، جريئًا على مواجهة الحرج؟!

كريون: ما من أحد ينكر عليك شجاعتك يا «أوديب»! لقد واجهت من الخطر، ما لم يستطعه أحد من أهل «طيبة»! ... وكان لك وحدك الظفر! ... ولكن، ليس كل الناس مثلك! إنك تُحملنا ما لا نطيق من الحرج، وأنت تطلب إلينا أن نواجه بالاتهام ذلك المقام الجليل!

الكاهن: حقًّا ... لو كان في الإمكان أن تجنبنا هذا الموقف الأليم؛ لأسديت إلينا يدًا لا ننساها لك!

أوديب: تريدان أن أتولَّى الأمر بنفسي؟

الكاهن: نعم!

كريون: هذه — ولا ريب — خير وسيلة! ... لقد انتهى إليك يا «أوديب» وحي «دلف»، وعرفت أن اسم القاتل قد غدا معلومًا ... وأن القصاص العاجل هو الثمن المرجو لإنقاذ «طيبة»، فلم يبق أمامك إلا أن توقِّع هذا القصاص سريعًا — بلا جلبة، ولا ضجيج — وعلينا بعدئذٍ، أن نعلن الأمر إلى الناس!

أوديب: لكم هذا ... ولن يكلفني ذلك كبيرَ عناءٍ ... ولكن الذي يزعجني ...

كريون: أسرتك؟

أوديب: أسرتي؟ وما دخل أسرتي هنا؟! ... أجل! ... صدقت! ... في الحق، أرى «جوكاستا» شديدة الإيمان بهذا الرجل! ... شأنها في ذلك شأن الناس جميعًا في هذه البلاد!

وإنها لرنَّة سوف تكون بعيدة الصدى، بالغة الوقع، يوم يعلَن اسم القاتل ... ولكن الذي أرجوه منكما هو أن تذكرا ...

كريون: ماذا؟ ... ما سوف يترتب على ذلك من آثار، تتصل بالعرش؟

أوديب: لست أفكِّر الآن في ذلك العرش ... وقد لطخته تلك اليد بالدماء! ... كلَّا ... إنما أردتُ أن تذكرا أن ذلك الأثيم قد ينكر التهمة، ويرمي موجهها بالزور، والبهتان، والتلفيق، والتزوير! ... وقد يسميها مؤامرة دُبِّرت لهلاكه من أجل غاية في النفس! ... يَحسُن أن تبقيا ها هنا ... سأدعوه أنا ... لتخبراه بما كشفَ عنه الوحي! ... وبعدئذٍ أتولى أنا البقية ...

الكاهن: ستدعو مَن؟

أوديب: قاتل «لايوس» ... إنه ليس بعيدًا عن هذا المكان. انتظرا! ... سأرسل في طلبه.

الكاهن (ناظرًا إلى «كريون»): «أوديب»!

أوديب: عجبًا! ... لماذا تتبادلان دائمًا هذه النظرات؟!

الكاهن: أنت تعلم أنه ليس بعيدًا عن مكاننا الآن!

أوديب: ربما ... لقد كان وعد بالمجيء عند حضوركما ... لكأنه كان يعرف ما ينتظره ... فلقد ألقى في نفسي الشك، فيما سيأتي به «كريون» ... ولكني لن أمهله طويلًا ... لا بُدَّ من طلبه (يتحرك).

الكاهن (يستوقفه): أين تذهب يا «أوديب»؟ ... قاتل «لا يوس» ليس بعيدًا عنا!

كريون: إنه ليس بعيدًا عن هذا القصر!

الكاهن: إنه، كما تعلم، في هذا القصر الآن ... لم يبعد عنه خطوة!

أوديب: في هذا القصر ... الآن؟ ... ماذا تقصدان؟

الكاهن: إنك تعرف يا «أوديب» ما نقصد، ومن نقصد!

أوديب: قاتل «لايوس» في هذا القصر؟

الكاهن: وفي هذا البهو ... كما تعلم، ولا ريب!

أوديب: أفصِحا!

الكاهن: يا للويل! ... أوَكنت تجهل طول الوقت ما نعني؟ من كنت تتهم إذَن غيرك يا «أوديب»؟!

أوديب: غيري؟! ... ماذا أسمع منك؟

الكاهن: عجبًا ... أمَا كنت تعرف أنك أنت يا «أوديب» قاتل «لايوس»؟!

أوديب: أنا؟! ... قاتل «لايوس»؟! ... أجننت أيها الكاهن؟!

الكاهن: لم أُجنَّ ... ولكنه الوحي، الذي جاء به «كريون» من معبد «دلف»!

أوديب: الوحي قال: إني أنا القاتل؟!

الكاهن: تكلَّم يا «كريون»!

كريون: أجل! ... تلك هي الحقيقة! ... أرويها؛ كما سمعتها! ... ولا أزيد حرفًا على ما سمعت ... هكذا أوحت السماء: «أوديب» هو قاتل «لايوس»!

أوديب (في ضحكة مغتصبة)**:** أنا القاتل؟! ... أهذا معقول؟!

الكاهن: إني حقًّا لفي حرج شديد! ... ولكن!

أوديب: ومتى قتلت ملككم، وأنا لم أرَه؟ ... ومتى فعلت ذلك وأين؟

الكاهن: لسنا ندري ... وليس إلينا نحن توجه هذه الأسئلة! ... إنما نحن نبلغك ما جاءنا به الوحي!

أوديب: وحي من؟ ... وحي «كريون»؟ ... أو وحيكم يا رجال الدين!

الكاهن: ماذا تقول يا «أوديب»؟!

أوديب: يا لها من ألعوبة مكشوفة الستر! ... وأحجية مهتوكة القناع! ... في بلد الألغاز والأحاجي! ... يا لكم من حمقى! ... لا يستطيع أحدكم، حتى أن يجيد حَبكَ أُحبولة من الحبائل!

الكاهن: لا تسرف في مثل هذا القول، يا «أوديب»!

أوديب: صه! ... إني أرى الأمر الآن، في وضح النهار! ... لقد انكشف القناع حقًّا ... لا عن وجه قاتل وجريمة ... بل عن وجه مؤامرة ومتآمرين ... لا تحسبن يا «كريون»، وأنت يا «كبير الكهان»، أني من البلاهة حتى أقعَ في مثل هذه الشراك، التي لا يقع فيها صغار الطير! ... أو أني من الضعف حتى أعجز عن أن أُنزِل بكما، وبكل من يظاهركما — في العلن أو الخفاء — كل لون من ألوان العقاب!

الكاهن: مهلًا يا «أوديب»!

أوديب: إني ما أثبت لكم بعد أني خليق أن أسمَّى بطلًا! ... إن قهري لِوَحشٍ، لن يقاس بذلك البأس، الذي سأقهر به الخونة!

كريون: من هؤلاء الخونة؟

أوديب: أنتَ على رأسهم يا «كريون»! ... أيها الطامع في عرشي! لقد غرَّر بك هؤلاء الكهان ... ولكن سأجعل منكم جميعًا مهزلة يضحك منها الناس!

كريون: كفى يا «أوديب»! ... إني أمنعك من أن تتهمني بالخيانة! ... تذكَّر أني شقيق زوجك! ... وأني لا أوذيك أبدًا، ولا أوذي «جوكاستا» من أجل مطمع! ... لقد كان السلطان في يدي قبل أن تُقدِم علينا ... فنزلت لك عنه طبقًا لمنفعة الشعب، وطاعة لنصيحة أهل القداسة والإلهام!

أوديب: وأنتَ اليوم تنقض عليَّ، بحجة إنقاذ الشعب أيضًا، وطاعة لنصيحة المحبين لك، من رجال الدين!

الكاهن: لا ترسل القول جزافًا يا «أوديب»! ... إن رجال الدين يعرفون أن عروش الملوك تُرفع وتُخفض بيد الإله، لا بأيدي البشر ... وما كان لنا أن نأتي إليك في هذا الأمر العظيم، إلا ونحن نعلم أن إلهنا قد أنزل اللعنة على هذه الأرض، وأنه قد أوحى إلينا أن نزيل أسبابها: ليرفع غضبه عنا ... ولقد وعدتنا أنت بالعون، وبتنفيذ أمر الإله ... ولقد جئناك به، ونحن نذوب ألمًا وحرجًا ... وكان عليك أن تتلقى إرادة السماء بإذعان ... لا أن تلقي علينا رعدك وبرقك؛ لنخفي صوت الحق الذي هبط من أعلى!

أوديب: صوت الحق؟! ... ما هو صوت الحق، هذا الذي تسمعونه أنتم، ولا أسمعه أنا؟ ... أليس لي مثلكم أذنان في رأسي؟!

الكاهن: صوت الحق يا «أوديب»، لا يسمع بالأذن ولا بالرأس ... ولكن ... بالقلب!

أوديب: نعم! بمثل هذا الكلام، أيها الكاهن، تريد أن تُلقي في رُوعي أني بعيدٌ عن سمائكم ... وأني موضع لعنتها، ومهبط غضبها! ... وأنها إنما أرسلت الطاعون على هذه الأرض؛ لأني فيها مقيم! ... ولماذا أنا ملعون من الإله؟ ... ألأني لا أتقبل ما تنسبونه إليه، إلا بعد بحثٍ يُرضي عقلي؟ ... لو قلتم ذلك وجرُؤتم عليه، لما وجدتم مني اعتراضًا، ولكنكم تقولون شيئًا، يُلائِم خطتكم المُبيَّتة؛ تقولون: إني ملعون من السماء؛ لأني قتلت «لايوس»! ... وإن الدم، الذي دنس «طيبة»، وابتلاها بالوباء؛ لا يغسله غير دم القاتل! ... يا لها من مؤامرة! ... يا لها من مؤامرة!

الكاهن: إن الغضب لا شكَّ قد أعماك يا «أوديب»! ... لقد بلَّغناك ما جاء به الوحي فتدبَّر أمرك!

أوديب: إن الأمر لا يحتاج إلى طويل تدبير!

الكاهن: لك من الوقت ما تشاء ... ولم يبقَ لنا نحن إلا أن ننصرف!

أوديب: تنصرف؟! ... أوَتحسب من يتفوَّه بما تفوَّهتما به اليوم، يستطيع أن ينصرف بسلام؟!

الكاهن: ماذا تعني يا «أوديب»؟

أوديب: أيها الكاهن! ... إنك لم تَعرف بعد «أوديب»! ... هذا الذي اجترأت على وصفه بالقاتل، وزعمت أنه لطَّخ أرض «طيبة» بالدماء! ... لن تنصرف بسلام أيها الكاهن ... ولا أنت يا «كريون»!

كريون: «أوديب»!

الكاهن: لن ننصرف بسلام؟!

أوديب: لم يبقَ أمامكما غير طريقين: تستطيعان أن تنصرفا إلى أيهما شئتما: الموت، أو النفي؟!

الكاهن (وكذلك «كريون» في صيحة): الموت، أو النفي؟!

أوديب: ليس لخائنٍ، يتآمر على العرش غير القتل من عقاب! ... ولكني أمنحكما الخيار؛ رأفة مني بكما ... وكان الحزم يقضي أن أكون شديد المراس ... وأن أقتلع جذوركما من الحياة؛ كما يُقتلَع عشبٌ نَتن خبيث! ... ينفث فيما حوله الفوضى والفساد ... لقد مضى في أمركما حُكمي: إما النفي، وإما الموت! ... النفي، أو الموت!

الفصل الثاني

(ساحة أمام القصر ... جوقة الشعب محتشدة ... وقف منها «أوديب» و«الكاهن» و«كريون» موقف الماثلين بين أيدي قضاء.)

أوديب: يا أهل طيبة! ... إنكم الآن أمام جريمة ضد شخصي وعرشي ... اقترفها هذان المتآمران! ... ولقد قضيت فيها بالحكم الذي أراه عادلًا ... ولكني لن أنفِّذ حكمي، حتى أقوم بتحقيق جرمهما في حضوركم ... فأنا لا أحب أن يُعميني الغضب عن الحق! ... سأكشف لكم عن وجه الحقيقة بيدي الآن؛ لتُبصروا المجرم سافرًا!

الجوقة: من كان يظن — يا «أوديب» — أن «كريون» و«كبير الكهنة»، يتآمران عليك؟!

أوديب: أنت في سذاجتك أيها الشعب لا ترى ما يُنسَج في الظلام! ... ولكني الساعة ممزِّقٌ لك الستار؛ لترى في النور تلك الأيدي الأثيمة التي أرادت أن تلطخ عرشك بالإثم والدم!

الجوقة: الويل لكلِّ من يمس شعرة منك، أيها الملك! ... نحن لن ننسى أبدًا أنك البطل، الذي أنقذنا من «أبي الهول»! ... اضرب أعداءك يا «أوديب» بلا رحمة! ... ونحن معك!

الكاهن: ما أبرعك يا «أوديب» في تأليب الشعب علينا! وزجِّك بنا في موقف المجرمين! ... وليس لنا من جرم إلا إخبارك بما أوحت به السماء من أمرٍ؛ لتُزيل عن «طيبة» هذا الطاعون!

أوديب: ما زِلت — أيها الكاهن الخائن — تسمِّي هذه المؤامرة وحيًا من السماء؟!

الكاهن: لا تغضب يا «أوديب»! ... وأنت الذي قلت الساعة إنك لا تريد أن يُعميك الغضب عن الحق! ... تمسَّك بالحلم، وتوسَّل بالأناة، واشرع في التحقيق الذي وعدت به ... وأسرع فيه، حتى لا تشغل الشعب به، عما يعانيه من شقاء!

أوديب (للجوقة): أترى حقًّا أيها الشعب أني أشغلك بهذا التحقيق عما أنتَ فيه من شقاء؟!

الجوقة: امضِ يا «أوديب» فيما شرعت فيه ... واكشف الستار ... فنحن مشوَّقون إلى رؤية ما وراءه من أمور!

أوديب: أرأيت — أيها الكاهن الآثم — كيف طاش سهمُك؟! ... تلك هي إرادة الشعب!

الكاهن: يا له من ساذج حقًّا! ... هذا الشعب! ... نعم ... هذا الشعب، الذي يُطعَم بالخيال لا بالحقائق! ... لقد نسي الطاعون الذي يفتك به ... ونسي أنك لم تجد علاجًا لإنقاذه ... ونسي وحي السماء، الذي كان ينتظر مجيئه ... ولم يذكر إلا شوقه إلى رؤية أوهام، تزعم له أنك رافعٌ عنها الستار!

أوديب: لا تُهن الشعب، أيها الكاهن! ... إنك ماثل أمام محكمته ... وهو الذي سيدينك، ويُقرِّني على عقابك، عند ما يرى جُرمك عاريًا، وقد جردتك من سرِّك!

الكاهن: افعل يا «أوديب» وعجِّل! ... إنك لم تزَل البطل الذي يفتن الناس، يكشف الأسرار ويحل الألغاز، ولكن الشعب سوف يعلم أني لا أخفي سرًّا، ولا أحمل لغزًا! ... إنما أردتُ صادقًا أن أستعين بالإله على طرد الطاعون من أرضنا! ... ولقد بلَّغتك بما جاء به الوحي ... وتلك كل جريمتي عندك!

أوديب: كلَّا! ... أيها الكاهن! ... جريمتك أنت تعرفها، كما يعرفها «كريون»! ... ومن يُظاهر كما في الخفاء! ... لن أتولى أنا عرضها أمام الشعب ... بل أترك لكما هذا الشرف ... حتى لا يُقال إني أسأت النقل، أو تعمدتُ التحريف! ... تكلَّم أنت أيها الكاهن بما لديك ... أو دَع شريكك يتكلم! (الملكة «جوكاستا» تخرج من القصر.)

الجوقة (ملتفتة): الملكة «جوكاستا»!

جوكاستا: إلى أن أحضر هذه المحاكمة؟ ... إن التهمة التي توجِّهها، يا «أوديب»، إلى هذين الرجلين لخطيرة!

كريون: أتصدقين يا «جوكاستا» أن أخاك «كريون» يطمع في عرش زوجك؟!

أوديب: لست أنا الذي يحاكِم أخاك يا «جوكاستا» ... بل الشعب هو المحكمة ... إنما أنا رجل، يتولَّى تحقيق الجريمة ... وسترين الآن بعينيك؛ كما سيرى الناس مِن حولك، ما يُسفر عنه التحقيق!

كريون: لقد قضى في أمرنا بالموت أو النفي!

أوديب: ولن أرضى بأخفَّ من هذا العقاب أبدًا، لمن يتآمر على العرش! ... فهذه مؤامرة لو تمَّت؛ لكان من عواقبها النفي — لي أنا — أو الموت!

جوكاستا: يجب أن يكون الدليل دامغًا يا «أوديب»، قبل أن تنفِّذ فيهما هذا الحكم الصارم!

أوديب: ها هو ذا التحقيق يجري علانية ... أمامك يا «جوكاستا»، وأمام الناس جميعًا ... وسأذهب به إلى الأغوار وأنقب في الأعماق؛ لأُخرِج لكم في نهاية الأمر، الحقيقة ناصعة لا يشوبها إبهام!

الجوقة: امضِ في عملك يا «أوديب»! ... فأنت خيرُ من يُميط اللثام عن سر الأشياء!

أوديب: وددت أن يجري الأمر في حضور «ترسياس» ... وأنا أعرف منزلته فيكم ... ولقد بعثت في طلبه ... قبل خروجي إليكم!

الجوقة: نِعمَ الذي صنعت يا «أوديب»! ... إن وجود هذا الشيخ المقدس، بيننا الساعة؛ ... لَممَّا يزيد في اطمئناننا.

جوكاستا: ما من أحد مثلي يريد أن يدخل قلبه الاطمئنان ... فأنا أعرف الناس بـ «كريون» ... فهو أخي الذي نشأت معه ... وإن طباعه المستقيمة، وخلقه السوي، وضميره النقي؛ لمما يلقي في نفسي الدهش لفعلته! ... إني لا أعرف بعد كيف تآمر ضد العرش! ... كل ما انتهى إليَّ، هو أنه موصوم بهذا الجرم ... ولكني لست أرى، كيف أقدَم على ذلك؟!

أوديب: ستعرفين الآن! ... لا من فمي، ولكن من فمه هو! (يظهر «ترسياس» يقوده غلامه.)

الجوقة: ها هو ذا «ترسياس» قد أقبل!

أوديب: أفسحوا له طريقًا!

ترسياس: إني أعرف لماذا أنتم ها هنا محتشدون! ... فحذار أن تسألني رأيًا يا «أوديب»، أو تطلب إليَّ كلامًا!

أوديب: لن أفعل ... إنما أردت أن تكون حاضرًا هذه المحاكمة، لأن مثلك لا ينبغي أن يُنسى في الأحداث الجسام؛ فأصغ إلى ما سيقال الآن، وافهم ما تنطوي عليه هذه الأقوال من مرمًى!

ترسياس: إني مُصغٍ يا «أوديب»!

أوديب: والآن إليكم أيها الناس كيف تآمر هذان الرجلان! … لقد وعدت أن أترك المتهمين يبسطان الأمر؛ توخيًا للعدل، ولن أحنث بالوعد … هلمَّ يا «كبير الكهان» … تكلَّم أنت أولًا!

الكاهن: ماذا أقول؟ … لقد قذفت بنا يا «أوديب» في هذا الموقف المخجل! … وألحقت بنا وصمة التهمة … وعرضتنا لأنظار الشعب خونة آثمين، قبل أن نعرف ما هو ذنبنا؟! … ليس عندي كلام غير ما تعرف ويعرف الناس … لقد ارتفعت شكواكم يا أهل «طيبة»، من ذلك الطاعون الذي فتك بكم، فلم نرَ حيلة لدفعه عنا إلا أن نطلب وحي السماء … فرأينا أن يذهب إلى معبد «دلف» رجل من بيت الملك، مشهود له بالحزم في الرأي، والصلابة في الحق، والاستقامة في المسلك! … وكان هذا الرجل هو «كريون» كما تعلمون … فهل ترون في هذا العمل بأسًا، أو عليه غبارًا؟

الجوقة: كلَّا!

الكاهن: ولقد ذهب «كريون» إلى معبد «دلف» … ثم عاد يحمل ما أوحى به الإله من قول في هذا الطاعون وعلته … ولم أشأ أن يفضي بما جاء به … إلا إلى الملك على انفراد … حرصًا منا على حبس الأمر في أضيق حدوده، ورغبة منا في تجنب إثارتكم!

الجوقة: ما الذي جاء به «كريون» من وحي السماء؟

الكاهن: على «كريون» أن يفضي به إليكم، إذا شاء!

الجوقة: تكلَّم يا «كريون»!

كريون: إنه شيء مُروِّع! … لا يحق لي أن أذيعه فيكم … إلا بإذنٍ من «أوديب»!

أوديب: إني آذن لك في أن تقول هنا كل شيء.

كريون: هاكُم ما جئت به … أنقله إليكم بنصه: «السماء غاضبة؛ لأن أرض «طيبة» ملطَّخة بالدنس … ملكها «لايوس» مات مقتولًا … ولم يُثأر بعدُ من قاتله … ولن يُرفع عن «طيبة» الغضب، إلا إذا غُسل ذلك الدم!

الجوقة: ملكنا «لايوس» مات مقتولًا؟!

أوديب: ليس هنا وجه العجب … أيها الشعب! … ولكن سلوه عن القاتل!

الجوقة: من القاتل؟ … من القاتل؟

كريون: ثِقوا أنه يؤلمني أشد الألم أن ألفظ اسمه … وأني عندما عرفته — أول مرة — أصابني من الرَّوع ما لا قِبل لي بوصفه … ولكن «أوديب» قد أعماه الحرص والخوف، فنسي منزلته من نفسي، ومكاني منه ومن أسرته؛ كما نسي غابر أيامي، التي أنفقتها في نصرته … وخلقي، الذي يأبى ما رماني به … وطبعي، الذي ينفر مما توهَّمه عني!

الجوقة: من قاتل «لايوس» يا «كريون»؟ ... من القاتل؟

كريون: لا تُرهقوا فمي بذكر هذا الاسم العزيز! ... اطلبوا إلى الملك الماثل أمامكم أن يذكره لكم!

أوديب: بل اذكر أنت اسمه؛ بفمك يا «كريون»!

الجوقة: اذكر لنا يا «كريون» اسم القاتل!

كريون: هو ... «أوديب»!

الجوقة: «أوديب» هذا؟! ... «أوديب» ملكنا؟! ... هو قاتل «لايوس»؟!

جوكاستا: ماذا أسمع منك يا «كريون»؟!

كريون: هكذا أوحت السماء يا «جوكاستا»!

الجوقة: «أوديب» هو القاتل؟! ... القاتل هو «أوديب»!

أوديب: أرأيتم يا أهل «طيبة» ... كيف دُبرت المؤامرة؟! هل تتصورون أني أقتل «لايوس» ... وأنا لم أره؟! ... ألا تذكرون أني عندما هبطت أرضكم، كان عرشه خاليًا، ومكانه مجهولًا؟! ... ولكنهم يريدون أن أكون أنا القاتل وليحقَّ عليَّ بعدئذٍ الموت ... أو النفي! ... لأنهم يضيقون بحكمي! ... ويكرهون — لغرض في أنفسهم — أن ألبث فيكم ملكًا!

كريون: أسأل السماء أن تصبَّ عليَّ اللعنة، لو كان في نفسي مثل هذا الغرض الخبيث! ... وإني لأقسم ... أقسم أني ما زِدت شيئًا، على ما سمعت، ووعيت من وحي «معبد دلف»!

جوكاستا: إلى أن أُدلي برأيي، فيما شجَر بينكما من خلاف؟! ... لست أرى فيكما كاذبًا ولا باغيًا! ... ما من شك عندي في أن «كريون» قد سمع ما جاء به! ... وقد نقله إليك يا «أوديب»، وهو خالص النفس، نقي الضمير ولكن «وحي السماء»، أرفع مكانًا من أن يدركه البشر، في كل حين! ... قلما استطاع بشر أن يحسن فهم «الوحي الإلهي»! ... إن إرادة الإله لها من المرامي، ما لا يتسع له ذهن إنسان! ... فلن يكون إذَن لمخلوقٍ سلطانٌ كامل على الغيب، ولا قدرة كاملة على التنبؤ! ... وفي يدي الدليل: «لايوس»! ... لقد خبَّرته نبوءة: أنه سوف يموت بيد ابنه — ابنه الذي هو من صلبه، ومن بطني! ... وإخال «ترسياس»، الحاضر هنا يذكر خبر تلك النبوءة!

ترسياس: أذكر ذلك أيتها الملكة!

أوديب (في تهكم خفي)**:** حقًّا ... إنه خيرُ من يذكر ذلك!

جوكاستا: ما الذي حدث بعد ذلك؟ ... لقد هلك ذلك الابن في المهد ... فقد دفع به أبوه، عقب ولادته بأيام ثلاثة، إلى راع حمله مغلولَ القدمين، ليُهلكه على جبل أجرَد ... أما

«لايوس» فقد لقي حتفه، كما تعلمون، خارج هذه الديار! ... سطا عليه، كما أُنبئت يومئذٍ، جماعة من اللصوص، قتلوه في موضع ناءٍ، عند ملتقى طرقٍ ثلاث ... هكذا مات الأب، بيدٍ غير يد ابنه! ... فأين ذهبَت النبوءة إذَن؟ ... إن الوحي — كما ترون — لا يصدُق في كل الأحول ... والسماء لا تهمس بكلامها لكلِّ الآذان! ... إنها أحفظ لسرها مما تظنون ... ولغتها لا يفهمها كل إنسان ... وهي تُؤثِر أن تُسفِر عن نواياها، بالأفعال لا بالأقوال ... إن القول هو لغتنا، نحن البشر ... أما لغة الإله فهي الفعل ... إياكم أن تتخذوا مما جاء به «كريون» دليلًا! ... إنما هو شيء سمِعه ... لا ينبغي أن يكون له أثر ... أو أن يُرتَّب عليه قرار!

أوديب: أرجو يا «جوكاستا» أن تكون أذني قد أساءَت السمع!

جوكاستا: لماذا ... ما هذا القلق على وجهك؟!

أوديب: لا شيء ... إنما هو الموقف من غير ريب ... وما يثار فيه من غريب الكلام، وعجيب الاتهام، قد أوقعني في الخلط!

جوكاستا: أفصِح يا «أوديب»! ... واكشف عما خالجك ... أتراني قلت شيئًا مسَّكَ عن غير قصد؟! ... إن كثيرًا من الكلمات الجوفاء، تَندسُّ أحيانًا؛ كالغوغاء في مواكب المعاني!

أوديب: خُيل إليَّ أني سمعتك تقولين: إن «لايوس» قتل عند ملتقى طرق ثلاث!

جوكاستا: حقًّا! ... ذلك قلته!

أوديب: قلت ذلك؟ ... قلت ذلك؟

جوكاستا: ماذا دهاك يا أوديب؟ ... نعم! ... ذلك ما انتهى إلى علمي في ذلك الحين!

أوديب: وأين كانت تلك الطرق؟ في أي أرض؟

جوكاستا: في أرض يقال لها «فوكيس» ... حيث يفترق الطريق إلى سبيلين: أحدهما؛ يؤدي إلى «دوليا»، والآخر إلى «دلف»!

أوديب: وفي أي عهد وقع ذلك؟

جوكاستا: كل الناس يعرفون أن ذلك حدث، قبل جلوسك على العرش بزمن قليل!

أوديب: أيتها السماء! ... أيمكن أن يكون ذلك حقًّا؟!

جوكاستا: ماذا يا «أوديب»؟ ... ما الذي يشغَل بالك، ويلقي هذا الاضطراب في نفسك؟!

أوديب: لا تسأليني شيئًا! أخبريني: كيف كان «لايوس»؟ ... في أية سنٍّ كان؟

جوكاستا: كان رجلًا فارعًا! ... فضي الشعر أجعده! أما وجهه، ففيه منك بعض شبه!

أوديب: أتُرى حقًّا لعنة السماء قد صُبَّت عليَّ؟!

جوكاستا: ما هذا الذي تقول يا زوجي؟! ... إنك لتخيفني!

أوديب: أتُرى فيما جاء به الوحي بعض الحقيقة؟! ... أخبريني أيضًا بشيء أخير ... حتى لا يبقى في نفسي خلجة شك!

جوكاستا: إنك تفزعني! ... سأفضي إليك بكل ما وصل إلى علمي!

أوديب: كيف كانت حاشية «الملك لايوس»؟ ... كم كان عدد حراسه؟

جوكاستا: لم يكُن يحرسه في رحلته أكثر من خمسة رجال ... ورائد في الطليعة ... ولم تكن هنالك غير مركبة واحدة، ركب فيها الملك!

أوديب: كفى يا «جوكاستا»! ... كل شيء اتضح لعيني الآن واستبان ... لكن ... من الذي أخبرك بكل هذا؟

جوكاستا: خادم! ... هو الوحيد، الذي عاد حيًّا، من ذلك السفر!

أوديب: ألم يزل قائمًا بالخدمة هنا؟

جوكاستا: كلَّا! ... لقد سألني أن أعفيه، من خدمة القصر، عندما رآك قد حللت في مكان سيده، وجلست على عرش ملكه ... ولقد ذهب فيما أعلم إلى البرية؛ ليعمل راعيًا، بعيدًا عن هذه المدينة!

أوديب: أنستطيع إحضاره في الحال؟

جوكاستا: نستطيع ... ولكن لماذا تريد ذلك؟

أوديب: آه ... يا زوجتي العزيزة! أخشى أن أكون قد بحتُ بأكثر مما يجوز ... يجب أن أرى ذلك الرجل أولًا.

جوكاستا: ستراه! ... ولكن! ألا يحقُّ لي يا «أوديب» أن أعرف ذلك الذي يُشيع في نفسك، كل هذا القلق والاضطراب؟!

أوديب: ستعرفين! ... أرسِلوا في طلب الراعي!

الجوقة: لينطلق أحدنا؛ أرسلوا في طلب ذلك الراعي!

الجوقة: لينطلق أحدنا؛ كالريح إلى البرية، في طلب الراعي!

(يجري بعض الحاضرين من الشعب، إلى الخارج.)

جوكاستا: ما الذي تريد أن تعلم منه يا «أوديب»؟

أوديب: هذا الراعي هو أملي الوحيد! ... أرجو أن أسمع منه قولًا، يخالف ما تفوهتِ أنتِ به!

جوكاستا: يخالفه في أي موضع؟!

أوديب: لقد قلتِ إن القاتل جماعة من اللصوص ... وإنه هو الذي ذكر لك ذلك ... لا بُدَّ لي من سماع شهادته؛ ليجلو هذا الأمر المهم: أكان القاتل جماعة حقًّا، أم كان فردًا واحدًا؟! ... على هذه الشهادة يتوقف الحكم ويتقرر المصير!

جوكاستا: مصير من؟ ... مصير من يا «أوديب»؟

أوديب: مصيري! ... هنالك شيء أخفيته عنك يا «جوكاستا» ... كما أخفيت أنت عني خبر هذه الظروف التي مات فيها «لايوس»!

جوكاستا: إني لم أخفِ عنك شيئًا ... تلك تفصيلات ما كانت تخطر على البال إلا أن يدعونا إلى ذكرها داعٍ، أو يدفعنا إلى تقليبها دافعٌ، وما هي بعد بالموضوع الذي يجمل بي أن أحادثك فيه بلا ضرورة!

أوديب: أنا أيضًا ما تعمدت إخفاء شيء! ... ولكنها حادثة عبرت، ما علقت عليها أهمية في حينها، وما ألقيت إليها بالًا؛ لأني ما عرفت شخصَ مَن قابلت.

جوكاستا: من قابلت يا «أوديب»؟

أوديب: رجل في مركبة ... يحرسها نحو خمسة رجال ... اعترضوني في أرض «فوكيس» ... في مفترق الطرق بين «دوليا» و«دلف» ... فنشب بيننا خلاف فيمن يمرُّ أولًا ... وتطور الخلاف إلى شجار ... ودفعتني حماسة الشباب يومئذٍ وفورته؛ إلى العنف، فرفعت هراوتي في وجه الرجال واشتبكنا في معركة ... ظهرتُ فيها عليهم، ولكن ضربةً من هراوتي، فيما يبدو، طاشت فأصابت رأس من كان في المركبة ... وانطلقت أنا بعدئذٍ في سبيلي حتى دنوت من أسوار «طيبة»، ولقيت الوحش ... وكان من أمري ما تعلمون؟ ... فإذا كان ذلك الرجل صاحب المركبة هو ملككم «لايوس» ... فأنا إذَن ضاربُه وقاتلُه!

جوكاستا: إلهي! ... إلهي!

أوديب: ولكني كنت بمفردي ... وأنتم تقولون: إن قاتل «لايوس» جماعة من اللصوص ... لا بُدَّ من إيضاح هذا الأمر ... قبل أن أصدر في نفسي حكمًا!

الجوقة (تلتفت): ها هو ذا الراعي، قد جاءوا به!

(يدخل بعض الناس ممن ذهبوا في طلب الراعي، وهم يقودون شيخًا هرمًا.)

أحد الناس: ما كدنا نخطو قليلًا، حتى صادفناه مقبلًا؛ فقد بلغه — فيما قال — خبر المحنة، فجاء يصلي مع أهل «طيبة»، ويضرع معنا إلى السماء؛ كي تُذهِب عن أرضنا هذا الوباء!

الجوقة: يا له من شيخ هرم!

أوديب: ادنُ مني أيها الرجل! ... وأجب عما أطرحه عليك من أسئلة! ... أكنت في خدمة الملك «لايوس»؟

الراعي: نعم! ... وفي بيته وُلدتُ، ونشأت!

أوديب: وماذا كان عملك لديه؟

الراعي: أرعى ماشيته!

أوديب: أتذكُر كيف قُتل «لايوس»؟

الراعي: ذاك حادث قديم! ... وقد ضعفت مني الذاكرة! ... ووهن الذهن!

أوديب: تذكَّر! ... تذكَّر! ... من قتل «لايوس»؟

الراعي: قتله — فيما أذكر — فتًى قويٌّ جلد!

أوديب: كيف؟

الراعي: زحم مركبة الملك عند مفترق الطرق، بين «دلف» و«دوليا» ... وقام شجار بينه وبين الحراس من الحاشية، فتغلب عليهم، وقتلهم، وأصابت ضربة منه رأس الملك فأصمَّته ومات! ... وهربت أنا بجلدي من المعركة ... ولم ينجُ غيري!

أوديب: أما كانوا جماعة هم الذين اعتدوا على الملك؟

الراعي: كلَّا يا مولاي! ... كان رجلًا فردًا.

أوديب: لقد انجلى الآن كل شيء لي ولكم، وانحسر النقاب عن وجه القاتل ... صدقت يا «كريون»! ... وصدق الوحي الذي جئت به من «معبد دلف»! ... ألتمس منك المغفرة! ومن كبير الكهنة؛ فقد أثمت بسوء ظني فيكما، وبتوجيهي إليكما ذلك الاتهام الباطل! ... قاتل «لايوس» بين أيديكم! ... أيها الناس! لن أحاول دفاعًا عنه، فاحكموا فيه بما ترون ... وأنزلوا به ما يستحقه من عقاب!

جوكاستا: «أوديب»! ... «أوديب»! ... لا تسرف هكذا، في اتهام نفسك! ... فأنت لم تتعمد القتل ... ولم تكن تعرف من المقتول؟!

أوديب: لا تدافعي عني يا «جوكاستا»! ... فأنتِ بضعة مني ... وما يحسن بنا أن نقيم من أنفسنا، مدافعًا عما اجترحنا من ذنوب!

جوكاستا: ما دمتَ تأبى عليَّ وعلى نفسك هذا الحق ... فها هنا «ترسياس»، يتولى عنك الكلام!

ترسياس: إذا احتجت إليَّ يا «أوديب» فأنا منك غير بعيد!

أوديب: كلَّا! ... بل ابقَ في مكانك يا «ترسياس»! ... ولا تتدخل! ... أمري بيَّن! لقد ارتكبت جريمة ونسيتها ... ولكن السماء لم تنسَها ... إنها تريد الآن الثمن! ... وتطالب بالجزاء! ... ومهما يشك «العقل» في حقيقة الصلة، بين تلك الجريمة، وهذا الوباء؛ فإن الشرف، لا يشك في حقيقة الواجب، الملقى على كتفي! ... واجبي الآن هو أن أتخلَّى عن عرش رجل، مات بيدي!

جوكاستا: مات بيدك؛ على كرهٍ منك! ... ما أحسب السماء تطالبك فيه، بهذا الثمن الفادح!

أوديب (كالمخاطب نفسه): إن السماء لا تظلم أبدًا؛ لأنها ميزان لا يعرف الخلل، ولا الميل، ولا الانحراف ولا الهوى! ... وما نراه منها جورًا، ليس إلا عجزنا عن رؤية ما توارى في الضمائر، ولهوَنا عن تذكر ما علينا من حساب! ... إنها تضيف إلى الذنب الظاهر وِزر الذنب الخفي! ... لقد كذبت على الشعب! ... لقد خدعت الشعب!

ترسياس (صائحًا مقاطعًا): كفى! ... كفى!

(يظهر عندئذٍ شيخ أحنى ظهره الهرم.)

الشيخ (صائحًا): أيها الناس!

الجوقة (تلتفت): من هذا الشيخ الصاعد من البرية؟!

الشيخ: دُلوني على قصر «أوديب»!

الجوقة: هذا هو قصره أمامك! ... من أنتَ أيها الغريب؟ ... وماذا تريد؟

الشيخ: أنا رسول من «كورنت» ... جئت برسالة إلى «أوديب»!

أوديب: ها أنا ذا أيها الرجل! ... اقترب! ... ما خبرك؟

الشيخ: خبر سار! ... وإن كان فيه ما قد يثير فيك بعض الشجن!

أوديب: تكلَّم أيها الرسول! ... وأخبرنا بما تحمل إلينا من نبأ!

الرسول: أهل «كورنت» يُهدون إليك التحية، ويسألونك أن تكون عليهم ملكًا!

الجوقة: ملكًا! ... على أهل «كورنت»؟!

جوكاستا: يا للسماء! ... التي تقطع وتصل! ... أرأيت كيف تظلم نفسك يا «أوديب»! ... لقد أردت التخلي عن عرش «طيبة» ... فها هو ذا عرش يأتيك من السماء!

أوديب (للرسول): وأين ذهب ملككم «بوليب»؟

الشيخ: مات وثُوي في التراب!

أوديب: «بوليب» مات؟ ... كيف؟ ... أبِمرضٍ مات، أم بحادثٍ عرَضٍ؟

الشيخ: بمرض الشيخوخة!

أوديب: لن أنسى أبدًا أنه كان لي، في مكان الأب الرحيم! ... وماذا جرى للملكة «ميروب»؟

الشيخ: لقد أقعدها الكبر! ... وهي في طريقها إلى اللحاق بزوجها!

أوديب: لقد أحبتني هي الأخرى؛ كما لو كانت لي أمًّا ... يا لهما من بارَّينِ كريمَينِ! ... إني لأذكر فجيعتهما، يوم أخبرتهما بكشفي حقيقة الصلة، التي تربطني بهما ... وإني لست سوى طفل لقيط تبنياه ... لقد حاولا جاهدَينِ أن ينتزعا من رأسي هذه الحقيقة! ... ولكني أبيت أن أقبل حنانهما؛ كما تُقبَل الصدقة! ... أرجو أن يكونا قد نسياني، بعد فراري من «كورنت»، وأن تكون الأيام قد شغلتهما عني!

الشيخ: كلَّا! ... لم ينسياك! ... ولقد أرسلا خلفك، في ذلك الحين، من يبحث عنك، ولكنك اختفيت ... لقد مات «بوليب» وهو يذكر اسمك ... ويوصيني أن أجدَّ في البحث عنك، وأن أعرض عليك من بعده الملك!

أوديب: وكيف عرفت أنت مكاني؟

الشيخ: خطر لي، آخر الأمر، أن أبحث عنك في مسقط رأسك! ... فسرتُ قُدمًا إلى «طيبة» فلما دنوت من أسوارها، علمت أنك أنت اليوم ملكها!

أوديب: ومن قال: إن «طيبة» هي مسقط رأسي؟!

الشيخ: إني أعرف ذلك؛ لأني أنا الذي التقطتك، وأنت طفل، وسلمتك إلى «بوليب»!

أوديب: أنت؟! ... التقطتني؟! أيها الشيخ؟!

الشيخ: في جبل ذي شجر ... بالقرب من «سيتايرون»!

أوديب: وماذا كنت تصنع هنالك؟

الشيخ: كنت أرعى الماشية!

أوديب: وكيف وجدتني؟

الشيخ: تلك الندوب التي في قدميك تخبرك!

أوديب: حقًّا! ... تلك ندوب قديمة، نشأت عليها، وما أخبرني أحد قط بشيء عن أمرها، وسرها، ومنشئها!

الشيخ: إنها من قيد! ... لقد كنت مقيدًا من رسغيك! ... وأنا الذي فكَّ قيدك! ... لهذا سميت «أوديب» أي مُورَّم القدمين!

أوديب: يا للسماء! ... ومن ذا الذي كان قد فعل بي ذلك؟! ... أهي أمي التي ولدتني، أم أبي الذي لفظني؟!

الشيخ: لست أدري من ذلك شيئًا ... سَل ذلك الذي سلَّمك إليَّ!

أوديب: سلَّمني إليك؟! ... أوَلست أنت إذَن الذي عثر بي؟!

الشيخ: بل راعٍ آخر! ... هو الذي عهِد بك إليَّ، ووضعك في يدي على تلك الصورة!

أوديب: راعٍ آخر؟ ... من هو؟! ... أتستطيع أن تخبرنا من كان ذلك الراعي؟!

الشيخ: أذكر أنه قال لي في ذلك اليوم: إنه من رجال «لايوس».

أوديب: «لايوس»؟! ... ملك «طيبة» السالف؟!

الشيخ: أجل ... الملك «لايوس» ... لقد قال لي ذلك الراعي إنه من خُدَّامه!

أوديب: خدامه كثيرون من غير ريب ... أوَلم يزَل حيًّا، ذلك الخادم الذي تعنيه؟ ... أفي إمكاني أن أراه وأسأله، وأعلم منه؟

الشيخ: هذا أمر يجيبك عنه أهل «طيبة»!

أوديب: أيها الناس! ... خبروني! ... ألم يسمع أحدكم شيئًا عن ذلك الخادم الذي نتحدث عنه! ... أما من واحد منكم، رآه في المدينة، أو في المروج؟ ... فليتكلم منكم من يعلم! ... لا تلزموا الصمت! ... ها نحن الآن أولاء، قد وصلنا إلى مفتاح السر ... سر مولدي! ... سر حقيقتي! ... الذي طالما نقبت عنه، وجريت خلفه!

الجوقة: سلِ الملكة «جوكاستا» ... فربما كان لديها علم بأمر ذلك الخادم، في بيت «لايوس»؟!

أوديب: زوجتي العزيزة! ... ألا تعلمين شيئًا عن ذلك الخادم؟

جوكاستا (شاحبة الوجه)**:** أي خادم تتحدثون عنه؟ ... لست أعلم شيئًا ... ولا ينبغي أن نعلم ... إنك يا زوجي كثير الإصغاء إلى كل ما يقال ... دع هذا الأمر، وأغلق هذا الباب؛ فلن تظفر من ورائه بطائل!

أوديب: عجبًا يا «جوكاستا»! ... كيف أغلق هذا الباب، وقد بدأ يتفتح عن السر الذي أتوق إلى معرفته؟!

جوكاستا: لا ... لا يا «أوديب»! ... لا تحفر كل هذا الحفر بحثًا عن سرٍّ ... إنما أنت تحفر الآن قبر سعادتك! أتوسل إليك أن تكفَّ ... إني خائفة ... إن لعنة أبدية تتجمع لتنقض على رءوسنا ... بحق السماء كفَّ يا «أوديب»؟!

أوديب: لا تخافي! ... لقد قلت لي يومًا: إنك لا تحفلين بحقيقة مولدي! ... فلأكن ولدت من صُلب عبد، من عبيدك الأرقاء ... فهل هذا يخيفك؟ ... أو يورثك من الخجل ما يذل

نفسك أو يسحق كبرياءك؟ ... سأمضي في بحثي عن حقيقتي ... تلك رغبة أقوى مني ... ولا يستطيع أحد أن يحُول بيني وبين رغبتي، في أن أعرف من أنا ... ومن أكون؟!

الجوقة: امضِ في طريقك، أيها الملك العظيم! ... واكشف الستار عن مولدك! ... فمهما يكن أصلك ومنبتك؛ فنحن بك فخورون!

أوديب: لا أريد أن أعيش في ضباب ... حتى ولو كان له الملك ثمنًا ... لقد تركت «كورنت» وعرشها بحثًا عن الحقيقة ... والآن — وقد كدت أضع يدي على مفتاحها — أحجم، وأتراجع، وأكفُّ؟! لن يكون ذلك أبدًا! ... لن يكون ذلك أبدًا!

الجوقة (تلتفت إلى الخلف)**:** ما لهذا الراعي خلف الصفوف، يتسلل كمن يريد الهرب؟!

أوديب: أي راع؟!

الجوقة: ذلك الذي كان في حاشية «لايوس»!

أوديب: أمسكوا به وأحضروه! ... لا بُدَّ أنه يعلم شيئًا.

(يدفع بعض الناس الراعي إلى حيث يقف «أوديب».)

الجوقة: لماذا تهرب أيها الراعي؟

الراعي: لم أهرب ... ولكني ما رأيت موجِبًا لبقائي!

أوديب: ما انصرافك هكذا إلا لعلة ... سنعرفها الآن ... ربما كنت تعرف من نطلب.

الراعي: لست أعرف أحدًا ... ولا شيئًا.

أوديب: اقتربوا به أولًا من رسول «كورنت» ... وأنت أيها الرسول، تفرَّس في وجهه جيدًا ... فربما أدى ذلك إلى أمر ... (يدفع بالراعي إلى جوار الشيخ.)

الجوقة (تنظر إلى الرجلين)**:** شيخان هرمان لكأنهما في عمر واحد!

الشيخ (صائحًا بعد أن يحدق في الراعي)**:** هو بعينه ... هو بعينه!

أوديب: من؟ ... من؟

الشيخ: الراعي الذي سلمني الطفل!

أوديب: أسمعت أيها الراعي؟

الراعي: لست أفهم شيئًا مما يقول هذا الشيخ!

أوديب: أما سبق لك أن لقيت هذا الشيخ في بقعة من البقاع؟!

الراعي: لست أذكر!

أوديب: وكيف استطاع هو أن يذكُر؟

الشيخ: دعني يا «أوديب» أشحذُ ذاكرته ... ما إخاله ينسى تلك الأيام التي نعمل فيها متجاورين، في منطقة «سيتايرون» ... كان هو يرعى قطيعين ... وكنت أنا أرعى قطيعًا واحدًا، ولقد تعاقبت علينا ثلاثة فصول ... من الربيع إلى الخريف ... حتى إذا أقبل الشتاء، سُقت قطيعي، عائدًا إلى «كورنت» ... وساق هو قطيعيه، راجعًا إلى «طيبة» أما كنا نفعل ذلك أيها الراعي؟!

الراعي: هذا حقًّا ما كنا نفعل ... ولكن مضت على ذلك سنون كثيرة.

الشيخ: أجل! ... مضت سنون كثيرة ... ولكن ذلك لا يمنع من تذكُّر ذلك الطفل الرضيع، الذي وضعته بين ذراعي ذات يوم، وتوسلت إليَّ أن أربيه؛ كما لو كان ابني!

الراعي (مرتجفًا)**:** ماذا تعني؟ ... وماذا تبغي مني أن أقول؟

الشيخ: ما أبغي منك إلا أن تنظر أمامك، أيها الصديق القديم ... ها هو ذا طفلك الرضيع!

(يشير له إلى «أوديب».)

جوكاستا (تلفظ بغير وعي همسة كالحشرجة)**:** كفى! ... كفى! (تهم مندفعة نحو القصر ... ولكن «أوديب» يمنعها.)

أوديب (صائحًا)**:** أين تذهبين يا «جوكاستا»؟!

جوكاستا: أيها الإله! ... رُحماك!

أوديب: مكانك لحظة! ... لتسمعي بأذنيك، حقيقة منبتي!

جوكاستا: لا أستطيع البقاء لحظة أخرى ... لا أستطيع ... لا أستطيع.

أوديب: لا تستطيعين أن تتحملي حمرة الخجل، تصبغ وجهك، وأنت تسمعين أمام كل هذا الملأ، من أي بطن وضيعٍ خرج زوجك ... إني ما أرغمتك قبل الآن على شيء قط ... ولكني أرغمك، الآن إرغامًا على البقاء في مكانك؛ لتعرفي عني ما سيعرف الساعة هذا الشعب المحتشد! ... حتى وإن كان في ذلك إذلال لجلالك الملكي، وجرح لعزة أسرتك العريقة!

الجوقة: ابقي معنا أيتها الملكة! ... واسمعي ما نسمع ... ولن يضيرك شيء ... فإن «أوديب» فينا، ملك ببطولته لا بأسرته!

أوديب: أصغي يا «جوكاستا» إلى حكمة الشعب ورغبته!

جوكاستا (تخفي وجهها بغلالتها)**:** رحماك أيتها السماء!

أوديب (للراعي): والآن أيها الراعي! ... صارحنا بجواب مستقيم ... ليس في التواء ... عن حقيقة ذلك الطفل، الذي سلمته إلى صاحبك هذا!

الراعي: صاحبي هذا يا مولاي، لا يدري ما يقول ... إنه ولا ريبَ مخطئ.

أوديب: حذارِ أيها الراعي! ... إذا أبيتَ أن تُجيب بالحسنى، فإنا نعرف كيف نرغمك على الكلام!

الراعي: ترفَّق يا مولاي برجل هرم مثلي!

أوديب: إذا أردتَ الرفق بك، فتكلَّم!

الراعي: ماذا تريدون أن تعلموا أكثر مما علِمتم؟

أوديب: ذلك الطفل الذي تحدث عنه صاحبك هذا، أهو أنت الذي سلمته إليه؟!

الراعي: أجل يا مولاي ... أنا ... وإني لأتمنى لو كنت متُّ في ذلك اليوم!

أوديب: إني مُذيقك الموت اليوم، إذا امتنعت عن الإفضاء بالحقيقة!

الراعي: الويل لي! ... إن في هذه الحقيقة موتًا لي، وأي موت!

أوديب: أما زلت تنوي أن تتهرب وتروغ؟!

الراعي: لم يبقَ إلى ذلك سبيل! ... أوَلم أعترف بأني أعطيته الطفل؟ ... ماذا يُراد بعدئذٍ مني؟

أوديب: من أين جئت بذلك الطفل؟ ... مِن بيتِك، أو من بيت آخر؟

الراعي: ليس من بيتي ... بل ... من بيت آخر!

أوديب: من أي بيت؟

الراعي: ويلاه! ... ويلاه! ... أستحلفك بالسماء يا مولاي ... أن تكفَّ عن سؤالي!

أوديب: أجِب ... أجب إذا أمسكت الآن عن الإجابة، فإني منزل بك كل عذاب، وملقٍ بك في شر ممات! ... تكلَّم!

الراعي: كان ذلك الطفل من بيت ... «لايوس»!

أوديب: أكان ابن عبدٍ من عبيده؟ ... تكلَّم!

الراعي: ألا يمكن أن تعفيني من القول؟! ... مولاي ... رفقًا بي!

أوديب: يجب أن تتكلم ... ويجب أن أسمع ... وإلا حطمت رأسك الأبيض! ... بلا رحمة ... وسحقت جسمك الواهن!

الراعي: كان الطفل ... ابنه هو.

أوديب: ابن مَن؟

الراعي: ابن ... «لايوس»!
أوديب: ابن الملك «لايوس»؟!
الراعي: نعم!

(يحدث هرج بين الشعوب ... ويكاد «أوديب» ينهار، ولكنه يتماسك.)

أوديب: ما تقول فظيع أيها الرجل ... فظيع ما تقول! ... لا يكاد عقلي يصدِّق ... حذار أيها الرجل أن تكون في قولك كاذبًا أو واهمًا ... لقد فهمتُ الآن العلة في هروبك مني ... ما أنت في واقع الأمر إلا منبع الخبر! ... منك أنت — ولا ريب — عرف كهان المعبد! ... فما من سر يُدفن في الصدر سبعة عشر عامًا، دون أن تنتشر له في الهواء رائحة! ... أنت إذَن مصدر الوحي في «دلف»! ... حذار أن تكون مفتريًا عليَّ بالزور، أو موحيًا بالإفك!

الراعي: بل هي الحقيقة ... وفي مقدورك أن تسأل الملكة «جوكاستا» ... فقد كان كل شيء في حضورها وبعلمها ... لقد دفعوا إليَّ بالطفل لأهلكه ... ولكن قلبي لم يجرُؤ على إهلاكه ... فسلَّمته إلى هذا الرجل ... ليذهب إلى بلاده، ويتخذه ولدًا ... فأخذه، وأنقذ بذلك حياته!

أوديب: أكان طفلًا حملته الملكة «جوكاستا»؟

الراعي: أجل يا مولاي ... وقد قيل يومئذٍ إن هلاكه ضروري لنبوءة مشئومة لحقَت به ... هي أن هذا الابن سوف يقتل أباه!

أوديب (صائحًا): «لايوس»! ... «جوكاستا»! ... يا للسماء! ... يا للسماء! ... انقشع الضباب من حولي ... فرأيت الحقيقة ... ما أبشعَ وجه الحقيقة! ... يا لها من لعنة! ... لم يسبِق أن صُبَّ نظيرها على بشر ... «ترسياس»! ... «ترسياس»! ولكنك جامد كتمثال ... لقد شعرت بطيف الكارثة ... وانقبض لها صدري ... قبل أن تنقضَّ ... ولكني ما تصورتها قط بهذه الفظاعة! ... كذلك انقبضت لها أنتِ يا «جوكاستا» ... «جوكاستا»!

(«جوكاستا» وكأنها كانت طول الوقت ماثلة، بغير رشد ... تسقط على الأرض، فاقدة الصواب.)

الجوقة (في صياح): أسرعوا إلى الملكة! ... الملكة «جوكاستا» تنوء تحت وقر الكارثة! ... أنجدوها ... أسعفوها. أدخلوها القصر!

(يجتمع الناس حول جسم الملكة ... يحملونها برفق، يعاونهم «أوديب» وقد أذهلته الفجيعة ... ويدخلون بها القصر ... تاركين «ترسياس» في موضعه.)

ترسياس: اذهب بي أيها الغلام بعيدًا عن هذا المكان! فقد راقَ للسماء أن تتخذه ملعبًا! ... نعم! ... إن الإله يلهو ويُنشئ فنًّا ... ويصنع قصة ... قصة على أساس فكرتي ... هي بالنسبة إلى «أوديب» و«جوكاستا» مأساة ... وبالنسبة إليَّ أنا ملهاة! ... عليكما إذَن يا صاحبَي هذا القصر أن تذرفا العبرات ... وعليَّ أنا أن أرسِل الضحكات!

(يضحك كالمجنون.)

الفصل الثالث

المنظر الأول

(في القصر ... «جوكاستا» في حجرتها ... ملقاة على فراشها ... ومن حولها «أوديب» وأولادها جزِعِين.)

أوديب (هامسًا): ابتعدوا عنها قليلًا، يا أطفالي ... ولا تُراعوا ... إنها نائمة.
أنتجونة: أهدابُها تتحرك يا أبتاه!
أوديب: نعم ... إنها تتنبه ... إياكم أن تُظهروا لها الجزع ... إنما هو مرض عارض ... لا يلبث أن يزول!

(«جوكاستا» تتنهد، وتفتح عينيها.)

جوكاستا: أين أنا؟ ... أنتم هنا يا أولادي؟ ... هذا أنت يا ... «أوديب»! ... ويلي! ... ويلي!
أوديب: تجلَّدي يا «جوكاستا»!
جوكاستا: ألم أزَل على قيد الحياة بعد؟! ... أما ابتلعَتني الأرض؟! أما طواني الفناء؟!
أوديب (بصوت منخفض): كُفي عن هذا الكلام في حضرة أولادنا!
جوكاستا: أولادنا ... أولادنا ... يا لبشاعة ما تقول!
أنتجونة (مرتاعة): أماه!
أوديب: اذهبي يا «أنتجونة» مع إخوتك ... لا تزعجوا أمكم الآن (يخرجهم برفق من المكان).
جوكاستا (كالمخاطبة لنفسها): أولادنا! ... أولادنا!

أوديب (يعود إليها): «جوكاستا»! ... أيتها العزيزة! ... رفقًا بنفسك وبي!

جوكاستا: أولادنا! ... من أي بطن خرجوا ... كلهم ... وأنت معهم يا ... «أوديب»! ... بطن واحد ... حملهم وحملك! ... لن تقول بعد اليوم إنهم أولادك! ... بل هم أيضًا إخوتك ... ولن تقول إني زوجك بعد اليوم ... فأنا أيضًا لك في عين الوقت ... أنا أيضًا لك ... ماذا؟ ... ماذا؟ ... ماذا أقول؟!

أوديب: لا تقولي شيئًا يا «جوكاستا»!

جوكاستا: أعرفَت الدنيا من قبلُ إثمًا كهذا الإثم؟! أَلَطَخ وجه الأرض دنسٌ، مثل هذا الدنس؟! ... أنزَلت على رأس بشر مثل هذه اللعنة؟ ... مع ذلك لم أزل حية ... حية أتنفس ... وأتكلم ... وأبصر أولادي ... أولادي جميعهم ... جميعهم!

(تبكي وتمزق شعرها.)

أوديب: رفقًا بنفسك وبي!

جوكاستا: «أوديب»! ... زوجي و... ابني! ... لماذا فعلت بنا السماء ذلك؟! ... أي جُرم استوجب علينا هذا العقاب؟! ... أتُراها جريمتي، يوم تركتك للهلاك صغيرًا؟! ... ابني وزوجي! ... أهذا ممكن؟! ... أهذا يمكن أن يحتمله كيان بشر؟ ... دون أن يصاب بالجنون ... أو يُصعق من الفور! ... لا بُدَّ أن أموت يا «أوديب»! ... لا بُدَّ أن أموت!

أوديب: لن تموتي يا «جوكاستا»! ... سأذود عنك؛ كوحش أصابه سعار ... سأقف في وجه كل من ينال منك شعرة ... سأصمد معك لصواعق السماء ... وضربات القدر ... ولعنات البشر ... لن تموتي! ... لن تموتي!

جوكاستا: وما قيمة الحياة الآن ... يا «أوديب»! ... ما قيمة حياتنا! ... عدونا الآن، ليسوا في السماء، ولا في الأرض! ... عدونا داخل أنفسنا ... عدونا هو تلك الحقيقة المدفونة، التي حفرتَ أنت عليها بيديك، وكشفت عنها ولا سبيل إلى الخلاص منها ... إلا بالقضاء على أنفسنا، يجب أن أموت إذا أردتُ أن أخنق في أعماقي ذلك الصوت البشع للحقيقة البشعة!

أوديب: لن تموتي ... سأقضي على كل عدو لك ... حتى وإن كان داخل نفسك!

جوكاستا: كلَّا يا «أوديب»! ... لا تفعل! ... إنك بذلك تمدُّ في عذابي ولا تريحني ... لقد قضي الأمر وحلَّت علينا اللعنة من الإله ومن الناس! ... أينما سرنا ... تبعتنا الأنظار؛ كأنها حجارة ترجمنا!

أوديب: تشجَّعي يا «جوكاستا» مثلما أتشجَّع ... وتجلَّدي مثلما أتجلَّد ... واحتملي كل شيء لمواجهة الواقع!

جوكاستا: أي واقع نستطيع أن نواجهه بعد اليوم!

أوديب: كياننا الواحد ... أسرتنا المتحدة ... قلوبنا المتحابة ... نفوسنا التي تعمرها المودة، وتدعمها الرحمة! ... مَن في مقدوره أن يهدم كل هذا البنيان؟! ... وأي قوة في إمكانها أن تدكَّ هذا البرج المشيد، من حب وعطف وحنان؟!

جوكاستا: «أوديب»! ... يا ... لست أدري كيف أناديك!

أوديب: ناديني بأي وصف شئت! ... فأنت «جوكاستا» التي أحبها ... ولن يغير شيء ما بقلبي ... فلأكن زوجك أو ابنك ... فما تستطيع الأسماء ولا الصفات أن تبدل ما رسخ في القلوب من العطف والود! ... ولتكن «أنتجونة» وإخوتها أولادًا لي أو أشقاء؛ فما يستطيع وضع من هذه الأوضاع أن يغير في نفسي ما أكنُّه لهم من الحنان والحب! ... أعترف لك يا «جوكاستا» أني تلقيت الضربة؛ وكدت بها أنوء ... ولكنها ما استطاعت قط أن تجعلني أبدل شعوري نحوك لحظة واحدة! ... فأنت هي «جوكاستا» دائمًا ... ومهما أسمع من أنك لي أم أو أخت ... فلن يغير هذا من الواقع شيئًا ... وهو أنك عندي دائمًا: «جوكاستا»!

جوكاستا: «أوديب»! يا من أعزه أكثر من نفسي! ... لا تحاول أن تخفف عني وطأة المصيبة! ... إن الواقع هو كما وصفت ... ولكن الحقيقة يا «أوديب»! ... ماذا نفعل بصوت الحقيقة الصارخ؟!

أوديب: الحقيقة؟! ... إني ما خفت يومًا من وجهها ... ولا ارتعت من صوتها!

جوكاستا (كالمخاطبة لنفسها)**:** لطالما حذرتك من ذلك! ... وأشفقت عليك منها ... أنت الذي قضيت خير أيامك تجري خلفها ... من بلد إلى بلد ... لتمسك بنقابها ... حتى التفتت إليك، آخر الأمر ... وكشفت لك قليلًا عن وجهها المروع، وصرخت بصوتها المدوي ... فهدمت صرح سعادتنا ... وصَيَّرتنا إلى ما ترى ... حطامٍ من أسرة، لا تعرف لها وضعًا بين الأسر ... ولا نعتًا بين البشر!

أوديب: كان ينبغي لي يا «جوكاستا» أن أعرف الحقيقة!

جوكاستا: لقد عرفتها ... فهل استرحت؟!

أوديب: حقًّا ... ليتني ما عرفتها ... وهل كنت أتخيل أنها بهذا الهول؟ ... وهل كان يخطر لي أنها شيء، قد يقضي على هنائي؟! ... الآن فقط أدركت ... بعد أن انتقمت مني ... لأني عبثت بنقابها!

جوكاستا: انتقمت منا جميعًا يا «أوديب»! ... انتقامًا لا قيام لنا من بعده!

أوديب: لا تقولي ذلك يا «جوكاستا» في وسعنا أن نقوم انهضي معي ... ولنضع أصابعنا في آذاننا ... ولنعش في الواقع ... في الحياة التي تنبض بها قلوبنا الفياضة بالمحبة والرحمة!

جوكاستا: لا أستطيع يا «أوديب»! ... لا أستطيع البقاء معك! ... إن حبك لأسرتك قد أعماك ... إنك لا ترى الناس، وما هم قائلون ... لو استأنفنا هذه الحياة الشاذة بعد اليوم ... لم أعُد أصلح للبقاء ... أيها العزيز ... ليس هنالك من مخرج إلا ... ذهابي!

أوديب: لن تذهبي! ... سأرغمك على الحياة ... سأحرسك الليل والنهار ... لن أسمح لشيء أن يحطم سعادتنا ... ويقوِّض أسرتنا ... سأترك الملك والقصر ... ونرحل معًا بصغارنا عن هذه البلاد.

جوكاستا: نرحل معًا! ... كلَّا ... بل أرحل أنا وحدي.

أوديب: «جوكاستا»! حذارِ أن تُقدمي على أمر يلقي في قلبي اليأس! ... أنت تعرفين أني لا أستطيع لك فراقًا ... تجلَّدي وانهضي معي نواجه الحياة ... ثقي أنه ما دامت لنا قلوب، فنحن صالحون للبقاء!

جوكاستا: لم نعُد نصلح للبقاء معًا!

أوديب: ما هي تلك القوة التي تحُول بيني وبينك؟!

جوكاستا: لا تستطيع أنت تحطيمها يا «أوديب» ... مهما تكن لك تلك البطولة التي قضت على «أبي الهول»!

أوديب (كالمخاطب نفسه): يا له من مصير! ... إني بطل لأني قتلت وحشًا ... زعموا أن له أجنحة! ... وإني مجرم لأني قتلت رجلًا ... أثبتوا أنه أبي، الذي جئت من صُلبه! ... وما أنا بالبطل، ولا بالمجرم! ... ولكني فرد من الأفراد ... ألقت عليه الناس أوهامها. وألقت عليه السماء أقدارها ... فهل ينبغي لي أن أختنق، تحت وقرِ هذه الأردية التي ألقيَت عليَّ؟!

هذا قلبي ما زال ينبض ... إني حي ... إني أريد أن أعيش، أريد أن أعيش يا «جوكاستا» ... وأن تعيشي معي ... ما هذه الهوة التي تفصلنا الآن؟! ... ما هذا العدو الخفي والخصم المستتر، الذي يقوم بيننا كعملاق؟!

الحقيقة! ... ما هي قوة هذه الحقيقة؟! ... لو أنها كانت أسدًا ضاريًا، حاد المخلب والناب؛ لقتلته، وألقيت به بعيدًا عن طريقنا ... ولكنها شيء لا يوجد ... إلا في أذهاننا ... إنها وهم! ... إنها شبح. إنَّ ضربتي لا تنفذ في أحشائها ... ويدي لا تنال من كيانها ... وحش مجنح حقًّا! ... رابض في الهواء ... لا نصل إليه بسلاحنا ... ويقتل سعادتنا بألغازه!

«جوكاستا»! أنت ترتعدين من طيف يا «جوكاستا»! ... إن الواقع الذي نعيش الآن فيه، يجب أن يبقى ... ويجب ألا نسمح لشيء لا نراه أن يهدمه ... دعك من حقيقة ما سمعنا أيتها العزيزة! ... أصغي إلى نبضات قلبك الساعة ... ماذا هي قائلة لك؟ ... أهي تقول لك: إن شيئًا قد تغير؟ ... هل حبك لصغارك قد تغير؟ ... هل حبك لـ «أوديب» قد تغيَّر؟

جوكاستا: لا ... ولن يتغير أبدًا هذا الحب ... أبدًا ... أبدًا ... ولكن ...

أوديب: ما هذه الدموع في عينيك! قولي إنك تريدين الحياة من أجلنا!

جوكاستا: «أوديب»!

أوديب: لماذا تنظرين إليَّ هكذا ... كما لو كنت طفلك!

جوكاستا: «أوديب»!

أوديب: ماذا بك يا «جوكاستا» العزيزة؟! ... إنك ترثين لي! ... تشبثي بهنائنا الضائع يملؤك بالأسى ... أقرأ في وجهك ألمًا وعذابًا ... تألمي قليلًا ... بل أمعني في الألم ... فإن أعظم القوى تضافرت على هدم هذه الأسرة السعيدة! كل القوى! ... تفكير الإنسان المتمرد، وتدبير الإله الساخر، وتقاليد الناس، وأوهام البشر!

كل شيء تحالف على شقائنا ... حتى عقلي الذي لبث الأعوام يبحث عن حتفي ... إلى أن أخرج لنا ذلك الشبح، الذي استوى في الفضاء، يعصف بحياتنا الباسمة، ويزلزل واقعنا الجميل، ويمنعنا من التلاقي في عش نسجناه، من ريش تآلفنا الطويل!

«جوكاستا» فلنتألم من لطمة الكارثة التي نزلت بنا ... وانقبضت لها نفسانا معًا عند دنوها ... ألا تذكرين؟ ... ولكن إيانا أن نستسلم للنازلة! كل شيء يمضي ... ما دمنا نذود عن بيتنا! ... إن حرارة القلوب تذيب كل الذنوب! ... حتى ذنوب العقل وأخطائه!

إني مؤمن بطهر قلبي وقلبك؛ لأنَّا لم نرتكب إثمًا عامدَين ... ولم نُرد كل هذا الشر، الذي تحملنا تبِعته ... فليس لأحد علينا سبيل ... وليس لقوة أن تطلب إلينا ثمنًا باهظًا، لجرائم لم نسعَ إلى ارتكابها ... وإذا كان علينا أن ندفع ثمنًا ... فليكن هذا المجد، وهذا الملك وهذا الثراء! ... أما أنت يا «جوكاستا» ... وأما أولادنا فكلَّا ... كلَّا ... كلَّا.

جوكاستا (تهمس): أولادنا! ... أولادنا!

أوديب: بمَ تهمسين؟

جوكاستا: لا شيء!

أوديب: أرى في عينيك أمرًا ... إني خائف منك يا «جوكاستا»!

جوكاستا: لا تخَف! ... هو قليل من التعب ... دعني الآن!

أوديب: أراكِ منهوكة القوى!

جوكاستا: نعم!

أوديب: لو نمتِ قليلًا! ... لو استغرقتِ في نوم طويل، أيتها العزيزة؟!

جوكاستا: هذا ما عولتُ عليه!

أوديب: ولكني لن أدعك الآن، حتى تعديني أن نرحل معًا، عن هذه البلاد ... إلى مكان بعيد!

جوكاستا (كالمخاطبة لنفسها)**:** إلى مكان بعيد! ... نعم ... أعدُك!

أوديب: سأطلب ذلك من فوري، إلى الشعب، وإلى «كريون» ... استريحي الآن ... ولا تفكري في شيء ... حتى أعود.

جوكاستا: اذهب ... يا ... «أوديب»!

أوديب (ينظر إليها مليًّا)**:** لن أتركك بمفردك! ... سأنادي الأولاد يمكثون إلى جانبك، ريثما أرجع ... (ينادي) «أنتجونة»! ... «أنتجونة»!

(تظهر «أنتجونة» بالعتبة.)

أنتجونة: أبتاه!

أوديب: ادخلي أنت وإخوتك ... واعنوا بأمكم ... وسرُّوا عنها ... حتى أعود.

(يضع يده على أعناق أولاده ... وتتأملهم «جوكاستا» وهم مجتمعون على هذه الصورة ... ويقودهم «أوديب» إلى أمهم.)

أنتجونة: ما مِن أحد يستطيع التسرية عن أمي إلا أنت يا أبي. حسبُك أن تقص عليها قصة «أبي الهول»! ... إن أمي كما تعلم تحب سماعها منك دائمًا!

أوديب: الشعب في انتظاري يا «أنتجونة»! ... تولِّي أنتِ عني هذا الأمر! ... إنك تجيدين سرد القصة ... أكثر مني ... أُوصيك بالعناية بأمك! ... ريثما أعود! ... إياك أن تتركيها فريسة للتفكير!

(يخرج مشيعًا بنظرات «جوكاستا» الوالهة.)

جوكاستا (هامسة)**:** زوجي! ... ولدي!

أنتجونة: أماه! ... يبدو عليك حقًّا أنك تفكرين في شيء محزن!

جوكاستا: لن يطول أمدُ ذلك يا بنيتي!

أنتجونة: لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟!

جوكاستا: إنك تحبين أباك كثيرًا يا «أنتجونة»! ... إني واثقة أنك ستكونين دائمًا بجانبه ... إذا قدر لي يومًا أن أذهب إلى مكان بعيد.

أنتجونة: أذاهبة أنت يا أماه إلى مكان بعيد؟!

جوكاستا: ربما ... يحدث ذلك يومًا.

أنتجونة: أي مكان بعيد تعنين؟

جوكاستا: مكان بعيد ... يعيش فيه القلب طليقًا؛ كاليمامة الآمنة ... لا يطير في سمائه ذلك الطائر ذو الأجنحة والمخالب، الذي يفترس الحب!

أنتجونة: لست أفهم ما تقولين يا أماه!

جوكاستا: لا بأس ... لا تحاولي الفهم الآن ... كل ما أرجو منك أن تعني بأبيك ... إذا رأيته يومًا وحيدًا ... أوصيك به يا «أنتجونة» ... فهو يستحق كل محبتنا ... وإذا رأيت يومًا دموعه تنحدر من عينيه ... فبكفيك الصغيرتين الطاهرتين، امسحي تلك الدموع!

أنتجونة: لماذا تقولين لي هذا الكلام يا أماه؟!

جوكاستا: لأني لا أريد لأبيك أن يتألم ... يجب أن يعيش قرير العين ... وأن يجد فيك عزاءً يا بنيتي، عن كل شيء.

أنتجونة: تبكين يا أماه؟

جوكاستا: أوصيك به يا «أنتجونة»! ... أوصيك به يا «أنتجونة»! ... أوصيك به يا «أنتجونة»! (تضمها طويلًا.)

المنظر الثاني

(في الساحة أمام القصر ... الجوقة محتشدة كما كانت ... وقد وقف بين الجمع «الكاهن» و«كريون».)

الجوقة: مَن كان يتخيل أن الستار سيرتفع عن هذه الأشياء المروعة؟! ... ومن كان يتصور أن «أوديب» يجهل من حقيقته، ما كان يجهل! ... هذا البطل الذي لجَّ في البحث ... وحذق حل اللغز، يعمى عن شأنه، فلا يرى أي امرأة في فراشه، ولا أي ولد أنجب، ولا أي رجل قتل؟!

لكأن هذا الإنسان الذي قبض على أكثر مما ينبغي له من سرٍّ، قد أفلت منه أصغر ما يلتصق بشخص الإنسان من أمر ... لقد تطاول حتى هاجم «أبا الهول» ينتزع سره ... وتضاءل حتى خفي عليه ما في بيته، وما في قدمه! ... ما أتعس هذا الإنسان، الذي جعل ينقب في الأعماق، فما انبثق له غير نبع شقائه!

ترى ماذا يفعل الآن؟! ... وماذا جرى لـ «جوكاستا»؟ ... هل أفاقت؟ ... ترى ما عساهم يصنعون بعد اليوم؟! ... هؤلاء الذين يحتويهم هذا القصر في جوفه؛ كما يحتوي الحيوان في أحشائه القذر والنتن! ... لسنا ندري أنرثي لـ «أوديب»، أم نغضب عليه؟!

إنه مع ذلك ملكنا وبطلنا، قبل أن يكون الآثم في حق نفسه وذويه!

الكاهن: حسبك أيها الشعب حديثًا في أمر «أوديب»! ... دعكم الآن من شقائه ... واشغلوا أنفسكم بشقائكم أنتم!

الجوقة: وهل نملك لأنفسنا حيلة؟! ... سل «أوديب» ... فهو الذي يرى لنا دائمًا ما ينبغي.

الكاهن: إنكم ما زلتم تضعون «أوديب» في الموضع الذي جعلتموه فيه، وتتخيلونه على الصفة التي عرفتموها عنه! ... وليس في مقدوركم أن تتحرروا سريعًا، من سحر صورة ألفتموها ... ولا أن تُجروا فيها تعديلًا مفاجئًا، لأن ذلك يستلزم قدرة على سرعة الإدراك ... ما أجمد تفكيرك أيها الشعب! ... وما أبطأ يدك في وضع تمثال مكان تمثال! ... ولكني أنبهكم إلى أن «أوديب» الآن في همٍّ من أمره يكفيه، وفي بلاءٍ يُضنيه، وفي محنةٍ تستغرقه، وشغلٍ يصرفه عن التفرغ لأمركم!

الجوقة (ناظرة إلى باب القصر): ها هو ذا «أوديب» قد ظهر!

أوديب: إنه لشاقٌّ على نفسي أن أتعرض لأنظاركم ... بعد أن غطاني الخزي، ودثرني العار! ... ولكني جئت أتلقى حكم الشعب على أيها الناس! ... ارحموني قليلًا، إذا كان حكمكم الذي أصدرتموه الساعة في غيبتي، أقسى مما أحتمل!

الكاهن: إنهم لم يصدروا عليك حكمًا يا «أوديب» ولا تنتظر منهم أن يفعلوا ... ولكن تذكَّر أنك وعدت أن تصدر أنت حكمك على قاتل «لايوس» فلا تُخلف وعدك!

أوديب: لن أخلف وعدي أيها الكاهن! ... ماذا قدرتُ لكما من عقاب، يوم وجهت إليك وإلى «كريون» الاتهام؟

الكاهن: الموت أو النفي!

أوديب: أما الموت فإني أجبن الآن عنه؛ لأني أحب أهلي! ... فلتكن الثانية أيها الكاهن! ... دعوني أرحل بأسرتي عن هذه البلاد ... إلى غير رجعة!

كريون: إنك يا «أوديب» تسأل شططًا! ... ما أسرتك إلا أسرتي ... كيف ندعك تشرد هذه الأسرة في غريب البلاد! وتذهب بها إلى غير عودة؟!

أوديب: أوَتستطيع هذه الأرض أن تحملنا بعد اليوم؟!

كريون: ليس من حق أحدٍ هنا يا «أوديب» أو يجيز لك هذا الرحيل ... ولسنا نملك أن نقضي فيه بأمر، قبل أن نستلهم الإله!

أوديب: ما هذا الذي تقول يا «كريون»؟ ... ألست أنت الذي جاء من معبد «دلف» بالوحي؟ ... أليس هو الذي قال بتطهير هذه الأرض ممن لطخوها بالدنس؟!

كريون: إن ما طلبت يا «أوديب» لأخطر من أن أقرَّه بغير إذْن ... إن الوحي قد يغمض أحيانًا علينا ... لا بُدَّ في أمرك من بعض التريُّث ... ليس من اليسير أن يخرج أسرة «لايوس» من منبتها ... إنها لتبِعة ... لا يجوز فيها العجلة ولا التسرع!

الجوقة (تلتفت): هذا هو «ترسياس» قد أقبل ... ربما كان لديه رأي ... إن في مقدوره أن يطالع الوحي!

أوديب: ادنُ يا «ترسياس» ... وافصل فيما نحن فيه من خلاف! ... لقد عرفت ما وقع من أحداث ... وما هبط على رأسي من نوازل ... أعرض ترك هذا الملك الغائص في الوحل والدم ... أريد الفرار بأسرتي من هذه الأرض ... ولكن هؤلاء القوم يأبون إلا إطالة تعذيبي وإذلالي.

ترسياس (يدفع عنه غلامه): إليك عني أيها الغلام! ... أرى الآن طريقي ... لقد لطمني الإله على عيني فأبصرت!

أوديب: «ترسياس»! ... أصغ إليَّ ...

ترسياس: من هذا الذي يناديني؟ ... أبشر أم إله!

أوديب: أنا «أوديب»!

ترسياس: «أوديب»! ... من «أوديب»؟!

أوديب: ألا تعرف الآن من «أوديب»؟ ... دعني أذكِّرك به ... إنه ذاك الذي جررت عليه أنت كل هذه النكبات ... أنت الأحمق الذي أراد أن يتدخل، فيما لا قِبل له به ...

أنت الأعمى الذي ظن أنه يبصر للناس خيرًا مما تبصر لهم السماء! ... أنت الذي أردت، فكانت إرادتك وبالًا على الأبرياء ... لو أنك تركت الأمور تجري؛ كما قدَّر لها أن تجري طبقًا لنواميسها المرسومة ... لما كنتُ أنا اليوم مجرمًا!

أردت أن تتحدى السماء، فأبعدت «أوديب» صغيرًا عن الملك، ووضعت على العرش رجلًا من صنعك ... فإذا بهذا الرجل الذي وضعت، هو عين «أوديب» الذي أبعدتَ ... لطالما

زهوتَ بإرادتك الحرة! ... نعم ... كانت لك حقًّا إرادة حرة ... شهدتَ آثارها ... ولكنها كانت تتحرك دائمًا، دون أن تعلم أو تشعر، داخل إطار من إرادة السماء!

الجوقة: لسنا نفهم شيئًا من هذا القول العجيب، الذي يتفوه به «أوديب»!

الكاهن: دعوا «أوديب» يتفوه بما يشاء ... فهو يودُّ أن يبدو في ثوب البريء وأن يُلقي الجرم على عاتق هذا الشيخ الضرير! ... وما كان هذا الشيخ إلا ناقلًا لوحي عُلوي ... وقد صدقت النبوءة!

أوديب: نعم! ... صدقَت! ... وهو مما يدعو إلى العجب! ... ومما يعجب له هو نفسه في دخيلته ... هذا الشيخ الناقل للوحي! ... وإني إذ تفوهت الساعة بذلك القول لم أرِد أن أبدو بريئًا ... فأنا ما دافعت قط عن نفسي أمامكم ... إنما هو كلام يفهمه «ترسياس» ... ولا شأن لكم به، ولو اطلعت أيها الشعب على ما أعنى لامتلأت عجبًا!

أما أنت أيها «الكاهن» ... فمن يدري؟ ... ربما كنت لـ «كريون» دون أن تشعر؛ مثلما كان «ترسياس» لي!

إن الإنسان هو الإنسان ... لا بُدَّ له من أن يعمل، ويريد، ويسير؛ بما تدفعه إليه ملكاته وخيلاؤه، دون أن تتبين لبصيرته القاصرة، إرادته من إرادة الإله!

ترسياس: ما هذا اللغط حولي؟! أكاد لا أسمع شيئًا من حديث الناس! ... أذني ممتلئة بضحكات آتية من أعلى!

أوديب: نعم! ... لقد أرادت السماء أن تجعل منك أضحوكة! ... أنت يا من ظننت أنك تناصبها حربًا ... وقمت تشرع من إرادتك سيفًا ... وتخيرت أنت هذا القصر بسكانه الوادعين ميدانًا للنزال ... وضربت ضربتك ... ولكن الإله اكتفى بأن هزَأ بك، ولطمك على عينك العمياء؛ لتبصر حُمقك وغرورك! ... أما القصر فقد اندكَّ بأهله، تحت ضربتك الحمقاء، وسخرية السماء!

على أن من المروءة يا «ترسياس» أن تفكر قليلًا في أمر الضحايا ... تكلَّم واقضِ بما ترى! ... إني لا أسأل شيئًا غير الرحيل بأسرتي عن هذه الأرض ... حاملين خِزيَنا ... لعلنا نوفق في أرض أخرى إلى رمِّ حالنا! ...

ترسياس: أيها الغلام! ... ما هذا الذي يطن من أعماق الصمت؟ طنين الحشرة من أعماق الطين؟!

أوديب: هو مخلوق قتل أباه، وتزوج من أمه، وأنجب أولادًا هم له أشقاء! ... الحشرة في أعماق الطين تفعل ذلك؛ إنها عمياء ... ولقد فعلت ذلك؛ لأن مصيري، منذ وجودي،

أراد أن يقوده أعمى! ... أيها المجرم الحقيقي ... لو كان دمك طاهرًا لسفكته، وغسلت به جراحي! ... ولكن كُتِب لك أن تعيش مبجَّلًا، تخدع الناس، وأن أدفع أنا ثمن أخطائك، وأرتدي خزي أوزارك!

الكاهن: رفقًا بالشيخ يا «أوديب»! رفقًا بالشيخ.

الجوقة: تحمل قدرك وحدك يا «أوديب»؛ كما يليق ببطل أن يتحمله!

أوديب: أصبتم أيها الناس! ... إنه لمن الخطَل أن نناقش فيما أُلقِي على كواهلنا من أقدار ... ربما كان بعضها من صنع أيدينا ... أسامعٌ أنت يا «ترسياس»؟ ... عينك المغلقة لم تستطع أن تبصر يد الإله في هذا الكون! ... هذا النظام المقرر للأشياء كالصراط، كل من خرج عليه، وجد حفرًا يقع فيها ... صراط، لك أن تسير فيه بإرادتك أو تقف، ولكن ليس لك أن تتحدى أو تنحرف، وقد فعلت يا «ترسياس» فوقعت ... ولكنك جرفتنا معك ... غير أن السقطة لم تصِبك إلا في كبريائك ... لقد ردَّك الإله بها إلى موضعك ... أما نحن فقد أصابتنا في قلوبنا ... وما من أحد يبذل لنا الساعة عونًا ... حتى أنت، تلزم الصمت، ولا تنطق إلا بالهراء والخلط! ... لم يبقَ لنا من أمل إلا قلوب الناس، نسألها بعض الرحمة بنا ... والآن اغرب عني أيها الشيخ! ما عدتَ تصلح بعد اليوم لشيء فيما أرى ... اذهب به بعيدًا أيها الغلام.

ترسياس (للغلام)**:** اذهب بي إلى الإله؛ لأسأله: متى أعدَّ سخريته ودبرها؟ ... قبل خلقنا؟ ... أو بعد تفكيرنا؟ ... اصعد بي إلى السماء أيها الغلام، وأدخلني على الإله ... لأعلم هل هو يضحك الساعة حقًّا مني؟ ... أو هو لا يعرفني، ولا يحفل بأمري!

إنما هو قد ضحك سلفًا منذ مبدأ الخليقة ... منذ خلق هذه المزاحة ... وأطلقها في الزمان، تصيب من يتعرض لها ... وتلبس من يتحداها ... وتلحق من يقف في طريقها!

اصعد بي إلى السماء أيها الغلام؛ لأعلم ... فإذا وجدت الإله يضحك مني، فسأضحك أنا أيضًا في حضرته ... هكذا ... هكذا.

(يدفع الغلام أمامه، وهو يضحك، إلى أن يخرجا.)

الجوقة (وهي تشيع «ترسياس» بأنظارها)**:** ماذا جرى اليوم لـ «ترسياس» الجليل؟! ... لكأن الأحداث قد أذهلته عنَّا، وأخرجته عن طوره!

الكاهن: دعوه يذهب ... ما أراه اليوم على خير حال!

(صيحة تدوي في داخل القصر ... فيلتفت الجميع إلى بابه ... وعندئذٍ تظهر «أنتجونة» صائحة.)

أنتجونة: أبتاه! ... أبتاه!
أوديب: ماذا حدث؟ ... ماذا حدث؟
أنتجونة: أمي ... أسرع إلى أمي!

(يقفز «أوديب» إلى الدرج قفزًا ... ويدخل القصر ملهوفًا فزعًا ... وخلفه ابنته ... والجميع ينظرون إليهما جامدين من الروع، كالتماثيل.)

كريون (يفيق ويتحرك): ماذا حدث لأختي؟!

(يهم بدخول القصر.)

الكاهن (يمسك به ويبقيه): ابقَ يا «كريون»! ... مكانك الآن بين هذا الشعب ... الذي انصرف عنه رُعاته ... وشغل عنه حماته.

أنا نقدر ما يمضك من ألم، وما يخالجك من شعور! ... فما أنت إلا غصن من هذه الشجرة المالكة، وعضو في هذه الأسرة المنكوبة ... يهزك ما يهزها من أنواء وأرزاء!

وإن إخلاصك لـ «أوديب» ولأختك؛ ليدفعنا أن نطلب إليك أن تضع في يدك دفة هذه السفينة، قبل أن تغرق بنا جميعًا ... فقم في هذا الشعب القلق الحائر، وثبِّت مركبه في شاطئ أمين!

كريون: ومن يمنحني هذه السلطة؟

الكاهن: الظروف المحيطة ... والحوادث الطاغية، تمنحني من حق القيام على مصلحة الشعب، ما تمنحه الأمواج الجارفة للملاح الحازم عند دوار الربابنة، من حق النهوض بالعبء وإقرار الطمأنينة والثبات والإيمان!

كريون: أما رأيت كيف اتهمت بالطمع في العرش؟

الكاهن: قد سقط عنك ذلك الاتهام؛ لأن الحق كان في جانبك ... لا تصغ أبدًا إلا إلى صوت واجبك!

كريون (يصيخ بأذنه): صه! ... (تنطلق صيحات من داخل القصر.)

الجوقة: ما هذه الأصوات المفزعة، الصاعدة من جوف هذا القصر؟!

الكاهن (يلتفت نحو القصر): ماذا وقع؟! ... إن الأمور فيما أرى تزداد سوءًا!

كريون (يهم بالذهاب): دعني أذهب لأرى ما حدث!
الكاهن (يبقيه): مهلًا! ... هذا خادم يخرج إلينا من القصر!
الجوقة: انظروا إلى هذا الخارج من القصر، وفي عينيه آيات الهلع!
الخادم: يا أهل «طيبة»! ... لقد ماتت الملكة «جوكاستا»!
الجوقة: ماتت؟!
كريون: أختاه! ... (يهرع إلى داخل القصر.)
الخادم: مِيتة ارتعدت من هولها الفرائص ... وإليكم ما حدث ... إذا كان يعنيكم أن تعلموا.
الجوقة: تكلَّم ... تكلَّم ... قُص علينا كل ما حدث!
الخادم: لم نرَ شيئًا في أول الأمر ... ولكنا سمعنا «أنتجونة» تصيح قائلة: (أين أبي؟ ... أين أبي؟)

فلما سألناها عما بها قالت إن أمها نهضت من فراشها، وقبلتها وقبلت إخوتها ... وزعمت لهم أن التعب قد نال منها، وأنها تريد نومًا ... وجذبتهم إلى خارج حجرتها ... ثم دخلتها وأوصدت الباب عليها من الداخل، وقد شعت عيناها ببريق يثير الخوف، ويبعث على القلق!

بعدئذٍ لم يسمع الصغار من خصاص الباب، إلا صيحات مكتومة وزفرات مخنوقة!

ثم كان سكون مطبق رهيب ... وانطلقت «أنتجونة» خارجة إليكم كما رأيتم، تخبر أباها! ... فبادر «أوديب» في أثرها إلى الحجرة الموصدة يطرقها كالمجنون: ولا من مجيب ... فجأر كالوحش المخوف، وحمل على الباب بكتفيه حتى أسقطه ... وهنا رأينا مشهدًا جمدت له في عروقنا الدماء!

الملكة «جوكاستا» معلقة من عنقها بحبل تدلَّى في الهواء ... وكل شيء من حولها ساكن سكون القبر ... فما كاد «أوديب» يراها على هذه الحال حتى اندفع إلى الحبل فجذبه ... وإذا جثة الملكة تهوى باردة على الأرض!

عند ذلك أبصرت عيوننا أبشع منظر وقعت عليه عين بشر! ... فقد جن جنون «أوديب»، وانحنى على جثمان «جوكاستا» يمرغ خديه على خديها، ويمسح رأسه بقدميها ... ويصيح: إليَّ بسيف ... سيف! ... إني ما تحملت هذه الحياة الشقية إلا من أجلك! ... «زوجي وأمي! ...» فلما جمدنا في مكاننا وذهلنا عن ندائه، زأر كالأسد الجريح ... وصاح: «يبطئون عليَّ بأداة الموت أيضًا! ... لا حاجة بي إلى السيف ... هاكُم ما هو أفظع من الموت وأشد وأوجع!» وامتدت يده كمخلب الباشق، إلى صدر الثوب الملكي، الذي ترتديه

«جوكاستا»، فانتزع منه مشابكه الذهبية، وطعن بها عينيه طعنًا عنيفًا متصلًا! ... وهو يقول:

«لن أبكيك إلا بدموع من دم! ...» ومضى يخرق بالمشابك أجفانه ويمزق أهدابه ... والدماء تسيل من عينيه مدرارًا ... صابغة بلونها القاتم، صفقة خده ... كأنها أسطر سوداء لحكم قدر صارم!

الجوقة (ومن بينها أصوات نساء): كفى! ... كفى!

الكاهن: وأين هو الآن هذا الملك التعس؟

الخادم: يتخبط في أرجاء القصر؛ ويتلوى من آلامه!

الكاهن: أما من أحد يخفُّ إلى إسعافه؟!

الخادم: وماذا يجدي في علاجه الآن؟ ... انظروا ... أرى ذراعيه تضربان الفضاء، متلمسة طريق الخروج من القصر!

(«أوديب» يظهر مكفوف البصر، والدم في وجهه وعلى ثيابه.)

الجوقة (في صيحة فزع): ويلاه!

أوديب (يتقدم متعثرًا): أين ساقتني قدماي؟!

الجوقة: لماذا أحدثت بنفسك يا «أوديب» هذا الأمر، الذي يؤذي منظره النفوس!

أوديب: هذا أنت أيها الشعب الكريم! ... ألتمس العفو منك والمعذرة لي ... ما كنت أودُّ أن أوذي أبصارك بمنظرٍ كريه! ... ولكني أتلمس طريقي الذي لم يبقَ لي سواه.

الجوقة: ما هو هذا الطريق يا «أوديب»؟

أوديب: طريق الموت! هناك خارج أسوار «طيبة» ... سأهيم على وجهي في البرية ... حتى أصادف وحشًا يفترسني، ويحطَّ طير يطعم من بقايا أشلائي.

الكاهن: لن ندعَك تذهب إلى حتفك!

أوديب: رحمة بي! ... لا تسدوا في وجهي السبل بعد الآن لقد أبيتم علينا النفي، حتى فات أوانه ... فلم يبقَ لي إلا ملاقاة الحتف.

الكاهن: لن تخطوَ إليه بقدميك!

أوديب: مَن يمنعني؟

الكاهن: الإله ... إذا رأى أجلك لم يحِن بعد!

أوديب: وما حظ الإله من الإمعان في تعذيبي؟! ... أما استوفى حقه من عقابي بعد؟!

الكاهن: ربما يريد بك خيرًا؟!

أوديب: أي خير يمكن أن يحل بي بعد اليوم؟ ... وقد انطفأ من حولي النور! ... كل نور قد انطفأ ... في عيني وفي قلبي ... لقد دثَّر حياتي ظلام أبدي ... كأنه رداء حداد لن يُخلع عني أبدًا.

الكاهن: لو أنك أردتَ أن تدنو من الإله، فأشعلتُ له في نفسك «مسرجة»؛ لأضاءَت لك في أحلَكِ لياليك ... ولكنك آثرت أن تولد في «عقلك» «مصابيح» ... انطفأت كلها عند عصفة من عصف الريح!

أوديب: لا تلُمني أيها الكاهن ... ولا تنتقم مني! ... لقد أضأت حقًّا تلك «المصابيح» لأبحث عن «الحقيقة»! ... ولقد حذرني يومًا «ترسياس» من أن تلمس أصابعي وجهها ... وتدنو من عينيها!

إنها لا تحب من يحدِّق إليها أكثر مما ينبغي! ... نعم ... لقد دنَت هذه الأصابع منها أكثر مما ينبغي حتى اقتلعت عيني أنا!

لقد انتقمت هي ... فخفِّف عني أنت أيها الكاهن! ... إني في حاجة إلى رثائك ورحمتك!

الكاهن: وما تنفعك رحمتي؟! ... وقد نزلت بك كل هذه الخطوب؟! ... ولكني أستنزل عليك رحمة السماء!

الجوقة: هذا «كريون» يخرج من القصر شاحب الجبين!

أوديب: «كريون» قادم؟ ... سلوه العون لي، والتخفيف من آلامي؟!

كريون (وقد ظهر): لماذا فعلت بنفسك هذا يا «أوديب»؟! وما الذي ترجوه مني تخفيفًا لآلامك؟!

أوديب: دعوني أذهب بعيدًا عن «طيبة» ... اطردوني من أرضكم؛ كما تُطرد اللعنة!

كريون: لا تسألني ذلك يا «أوديب»!

أوديب: لن أطلب إليك يا «كريون»، الرحيل بأهلي ... كما طلبت أول مرة ... فالظروف قد تغيرت الآن؛ كما تعلم ... سأذهب بمفردي ... تاركًا لك أولادي ... ترعاهم بعنايتك ... فأنت لهم خير أب ... وأوصيك بالبنتين خيرًا يا «كريون» ... و«أنتجونة» على الأخصِّ ... لقد كانت شديدة اللصوق بي ... فحاجتها إلى حنانك أشد وأكثر.

ها أنت ذا ترى أن الأمر هين عليك إقراره ... فقد عهدت إليك بأسرتي وأسرتك ... أي ما تبقى منها ... أما أنا فما في بقائي من نفع ... لم أعُد أصلح للبقاء!

لقد صدقت «جوكاستا» العزيزة ... حملتها عبئًا على الحياة ... وقد قاومتُ كما قاومَت ... ولكن شيئًا أعظم بأسًا وأقوى بطشًا قد انتصر ... وبذهاب «جوكاستا» أدركتُ قوة ذلك

الشيء، الذي أرغمها على الموت ... وفهمتُ أن حياتي أمسَت هي الأخرى عدمًا من العدم ... فكَفتها من الفور في الظلام! ...

كريون: ألَك من مطلب آخر يا «أوديب»؟

أوديب: نعم! ... لا تنسَ أن تُجري الطقوس الجنائزية اللائقة بدفن تلك المسجاة في حجرتها! ... إنها أختك! ... وإني مطمئن إلى حسن قيامك بواجبك!

ليس لي بعد ذلك من مطلب، إلا أن أوصيك مرة أخرى بأطفالي ... وإني لأطمع في نُبلك يا «كريون» ... وأسألك أن تبعث في طلبهم الساعة؛ لألسهم بيدي!

كريون (يشير إلى الخادم قرب باب القصر): كانت قد رأيت إقصاءهم، عن هذه المشاهد المؤلمة!

أوديب: مرة ربما كانت هي الأخيرة ... لو أذنت أيها الرحيم «كريون»! ... ألمس وجوههم البريئة بأصابعي ... وأتخيل ملامحهم ... وأتأمل في رأسي صورهم ... ماذا أسمع؟ ... ذلك وقع أقدامهم الصغيرة وذلك نشيج أعرفه من «أنتجونة» ... إنهم آتون ... أتراك رحمتني يا «كريون» وأرسلت في إحضارهم؟

(«أنتجونة» خارجة من القصر تقود إخوتها.)

كريون: لقد أمرت بإحضارهم لك يا «أوديب» ... فأنا أعلم مقدار حبك لهم ... ها هم أولاء على مقربة منك!

أوديب (يمدُّ يده في الهواء): شكرًا لك يا «كريون»! ... أين أنتم يا أولادي؟! لست أراكم ... ولن تبصركم عيناي بعد اليوم!

أنتجونة (وهي تكفكف دمعها): هون عليك يا أبتاه! ... ما دامت لي عينان، فهما لك. لن تكون وحيدًا ... سأكون إلى جانبك حيث تكون ...

أوديب: «أنتجونة» بُنيتي! لا يرضى قلبي أن أجرَّك معي في طريق الشقاء! ... مكانك هنا إلى جانب خالك وإخوتك!

أنتجونة: لا مكان لي إلا بالقرب منك يا أبتي ... أبصر لك! ... ألا تذكُر أني تُقت يومًا أن أرى الأشياء بعينك ... أراها كما تراها أنت ... سأحاول أن أبصر الأشياء كما تبصرها ... لن أُشعرك يومًا أنك فقدت ناظريك!

أوديب: بل أنا الذي كنت أتوق أن أرى الوجود صافيًا طاهرًا من عينيك! ... ولكني لم أعد أستحق ذلك ... ابقي يا بنيتي بعيدة عني! ... إن شبابك النضر هو ملكك؛ لا ملكي! ... لن آخذه منك ... فأرتكب جنايةً أخرى.

عيشوا حياتكم يا أولادي! ... وانفضوا أيديكم مني. فما أنا لكم إلا وصمة! ... وما أنا عليكم إلا عبء ... يكفيكم مني ما سوف يلقيه على غدكم ظلي المشئوم! ... ستكونون أمثولة الدهر، ومضغة الأفواه وألعوبة الألسنة! ... وما دام الناس في حاجة إلى أوهام تُغذي خواء أيامهم، فستكونون أنتم أسطورة الناس!

لا أمل لكم إلا في شخص واحد: «كريون» خالكم ... اجعلوه لكم أبًا ... ستجدون في كنفه العطف والحنان ... وقد عاهدني على العناية بكم ... وها أنا ذا أمدُّ لكم يدي تأكيدًا للعهد ... أين يدك أيها الصديق؟

(كريون: يتناول يد «أوديب» ويشدُّ عليها.)

أوديب: اتخذوا لكم يا صغاري من «كريون» مثلًا وقدوة! ... هذا الرجل السوي الخلق، النقي السريرة. المؤمن النفس! ... وإياكم ... إياكم أن تتخذوا من أبيكم مثلًا ... بل اجعلوا لكم من مصيره موعظة!

(أنتجونة: تتساقط عبراتها على يد «أوديب» بلا شهيق ولا صوت.)

أوديب: ما هذه الدموع على يدي؟! ... دموع من هذه؟

أنتجونة: «منفجرة» لا تقُل ذلك يا أبتاه! ... لن أتخذ غيرك مثلًا أبدًا ... أبدًا ... إنك بطل «طيبة».

أوديب: هذه أنت يا «أنتجونة» العزيزة! ... ما زلت تؤمنين بأني بطل؟! ... (يبكي) لا ... لم أعد كذلك اليوم يا بنيتي! ... بل إني ما كنت يومًا بطلًا قط!

(«أنتجونة» تمسح دموع «أوديب» بكفيها.)

أنتجونة: أبتاه! إنك لم تكن قط بطلًا؛ مثلما أنت اليوم!

مقدمة الترجمة الفرنسية[1]

محاكاة «سوفوكليس»، وإخراج «أوديب» الملك من جديد — إخراجه بالعربية — ومعالجة الموضوع القديم بل الخالد، دون ذهاب إلى وجوب التزام التقليد الحرفي، أو الترجمة الأمينة، أو مجرد الاقتباس البسيط، هو ذاك المطلب الجريء الذي قصد إليه «توفيق الحكيم».

جريء؛ لأننا إذا لم نتناول بالذكر غيره كمؤلفي المسرح الفرنسيين — مع أننا نستطيع أني نجد بين الألمان، والإنجليز، والإيطاليين، أقرانًا لـ «توفيق الحكيم» — ألفينا المؤلف المصري يتصدى لمطلب سبق أن حاوله، من عام ١٦١٤ إلى عام ١٩٣٩م بحسب التاريخ المسيحي، تسعة وعشرون مؤلفًا، نلاقي من بينهم «كورنيل» و«فولتير» و«م. ج. شنيه» و«كوكتو» و«جيد». وثَمة لا يطاول «توفيق الحكيم» «سوفوكليس» وحده، وإنما يطاول أعلامًا من المؤلفين المسرحيين، نشئوا في بلاد، للفن المسرحي فيها السيادة والرياسة، «وسوفوكليس» يخشى منه على من يسلك سبيله ويقفو أثره. وحسبنا أن نذكر ما جرى لـ «يوريبيدس»، حين جاء بعد مأساة لـ «حوريغورس» لسلفه «آشيلوس» ومأساة «إلكترا» لـ «سوفوكليس» يخرج على المسرح تاريخ انتقام، «أورستر» و«أختها» من أمها «كليتمنستر»، ومن «أجيست» غاصب عرش «أجاممنون»؛ فلقد جاءت مأساة «يوريبيدس» بعد مأساة «سوفوكليس» كما تجيء الهزيمة.

---

[1] وجدنا من النافع أن ننشر هنا مقدمة الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب، وهي للمسيو «ألويس دي مارينباك»، المتخصص السويسري في آداب اللغة اليونانية وفي تراجيديا «أوديب» بالذات، ومؤلف البحث المستفيض عن الشعراء والناثرين الذين تناولوا مأساة «أوديب» على مرِّ القرون. وقد تفضَّل بنقل هذه المقدمة إلى العربية الأستاذ «عبد الرحمن صدقي» ... لعل القارئ العربي يجدُ فيها وفي التعقيب عليها إيضاحًا لبعض مرامي المأساة في وضعها هذا!

ومن يُنعم النظر في المعارضات الفرنسية، التسع والعشرين، لـ «أوديب» الملك لـ «سوفوكليس»؛ يتضح له جليًّا أنه إذا كان قد أمكن معارضة أبلغ المؤلفين الأثينيين في مأساته؛ فإن أحدًا لم يبلغ إلى التفوق عليه قط، ولا إلى مساواته فحسب!

ثم إن هذا لا يرجع إلى تفوق المسرح القديم، على المسرح الحديث عامة؛ فإن مأساة «فيدر» لـ «راسين» أجمل من بعض النواحي، وأصدق في التحليل النفسي، وأوثق في البناء من مأساة «هيبوليت» لـ «يوربيديس»، وهي مع ذلك — دون مراء — تقليد لها أمين، إلى حد كبير. فالأمر راجع إلى موضوع «أوديب» نفسه وهو موضوع موافق — تمام الموافقة — للوسائل المسرحية، التي يملكها المسرح اليوناني؛ لتأدية ما يجب تأديته، كما أنه موافق تمام الموافقة لروح هذا المسرح، الذي تخلع أصوله، المتصلة بأعياد إله الخمر، طابعًا دينيًّا فلسفيًّا في جوهره عليه وصميمه. وما من شك في أن أسطورة «أوديب» تثير موضوع القدر، القدر القاسي المحتوم، الذي لا اختيار فيه ولا مردَّ له، يجثم بكل وطأة ثقله، على امرئ من قبل ميلاده، قاضيًا عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه ويجتهد المرء جهد ما يستطيع؛ للخلاص من هذا القدر المحتوم، فلا يستطيع إلا ارتكاب هذين المنكرين الفظيعين، اللذين كتب له ارتكابهما.

أما في العالم المسيحي — وعلى الأخص في العالم الكاثوليكي — فإن فكرة قضاء محتوم أعمى، قضاء تدبره الآلهة؛ في خبث، ومكر، وإرادة للأذى والشر؛ فكرة لا يمكن ورودها على البال، بحال من الأحوال. ولقد كتب الأب الجزويتي «فولار» من أبناء القرن الثامن عشر رواية عن «أوديب» فلم يفتهُ التعارض بين الفكرة المسيحية الغربية … وبين الفكرة اليونانية؛ فحاول أن يفرق بين قضاء الله، وبين تصرفات الملك قاتل أبيه ومضاجع أمه، أن يلقي تبعة الذنب كله، على «أوديب» وحده. أما الوحي الذي ألقت به الآلهة إليه، فلم يكن أمرًا مقضيًّا من القدر، وإنما هو نذير وتحذير، شاء الله في لطفه أن يلقي به إلى الإنسان؛ تنبيهًا له إلى الأخطار التي هو واردٌ عليها، إذا اتبع شهواته ومضى في غلوائه. وعلى الضد من ذلك «كوكتو» في الآلة «الجهنمية»؛ فهو يشهدنا — في طريقة عريقة في اليونانية — على مطاردة الآلهة لبرئ من الأبرياء، وإنزال القصاص به؛ عفوًا من غير اقتضاء، على حين يحاول «جيد» أن يظهرنا — من وراء نفاذ أمر القضاء — على أن الإنسان ما برح مختارًا لأحواله، حر التصرف في أفعاله.

ومعلوم للكافة — ولا حاجة بنا إلى معاودة ذكر الأسباب — أن هذه المعارضات الفرنسية الثلاث، لـ «سوفوكليس» دون مستوى النموذج اليوناني، على الرغم من أن هؤلاء

الثلاثة المؤلفين — دون مواطنيهم أجمعين — قد أدركوا أن موضوع «أوديب» يقوم، في صميمه وجوهره، على هذه المشكلة الفلسفية، يكاد يكون منحصرًا فيها.

ويطالعنا اليوم «توفيق الحكيم»، وهو — من حيث هو مسلم ينتمي إلى عالم، لا يرفض فكرة القدر، على أنها سخيفة باطلة، ولا يدين بما يدين به الغرب، في تصوره للعلاقة بين الرب والعبد — يبدع على الخصوص في موضع أوفق وأدعى للنجاح في مجال كان الإخفاق فيه نصيب عامة المؤلفين المسيحيين، من مقلدي «سوفوكليس».

ولـ «توفيق الحكيم» — كما يعرف الذين قرءوا له «مشكلة الحكم» — طريقة خاصة به، في تصوره لمحاكاة القديم. فهو لا يعرض للنموذج في ظاهر مبناه، بتعديل أو تبديل، إلا بالقدر الذي يقتضيه المعنى الجديد، المراد صبُّه في هذا القالب، ولكنه يتوفر على تحويل المسائل القديمة، إلى أغراض حديثة عصرية، وأن يجعلها أقرب إلى الإنسانية، ويردها إلى نطاق أكثر عمومًا. ومن ثمة كانت بينه وبين «أنوى» آصرة وقربى. ولكنه يختلف عن «أنوى» في أن مؤلف «أنتيجون» الحديثة يجعل من هذا التجديد عملية قائمة على قواعد مقررة، ونهج مرسوم. فلا يكاد يمضي فيها حتى يضيق بها المتفرج. أما «توفيق الحكيم» فهو في: أرابته، وسخريته، ويقظة رشده، يخلع عن الأبطال الأقدمين تلك العظمة التي أضفتها عليهم الأساطير؛ ليعيرهم عظمة غيرها، عظمةً تصدر عن فضيلتهم البشرية، دون سواها. فلم يُلقِ «أوديب» «توفيق الحكيم»، ذلك «الاسفنكس»، الذي تتحدث عنه الأسطورة، وما من وحش مفترس، ألقى عليه لغزًا لم يسلم إلا بحله. بل قنع المسافر البطل بأن صرع أسدًا، كان يجول في سفح جبل «سنيرون»، ويفتك بأهل البلاد؛ شأنه شأن الوحش الأسطوري، الذي كان يفتك بالغنم في إقليم «فاليه» الموحش في سويسرا، واتضح عام ١٩٤٦م أنه لم يكن إلا ذئبًا من الذئاب الضارية في تلك الناحية.

أما الذي لفَّق قصة «الاسفنكس» الخيالية فإنما هو «ترسياس» العرَّاف، ذلك السياسي البارع، والخبير العارف بالناس، الذي فطِن إلى ما يمكن أن تستخرجه الدعاية، من هذا الحادث الصغير. فقد كان عليمًا بمبلغ ميل العوام، إلى كل ما فيه إيهام وتهويل. فعمد — وقد اجتمع في شخصه «ميكيافلي» و«جوبلز» — إلى الفتى الساذج، صارعِ الوحوش، فأجلسه على عرش «ثيبا»، فكان كل ذنبه أن قبِل الدور، الذي أراده العرَّاف على لعبه ... وهكذا بات «أوديب» رهنًا أسيرًا لأكذوبة سياسية لا معدى له عن العمل على تقريرها في أذهان الناس وفي أذهان ذويه «جوكاست» وأولاده، الذين كانوا لا يملُّون من سماع هذه القصة البديعة، التي يقوم عليها ما يباشره الملك من سلطان على «ثيبا».

وهذا تصرف بارع، وفيه مصلحة وخدمة تامة للغرض العميق، الذي يتوخاه المؤلف. فقد نزل «أوديب» من قاعدته المنصوبة في الأساطير، وتورط في أكذوبة ثقيلة الوطأة عليه، وبالجملة أصبح إنسانًا، مثل سائر الناس. ولن يصبح عظيمًا إلا بمسلكه، ونوع موقفه أمام الكارثة. ولا يتساءل «توفيق الحكيم» عن الموجب لهذه الكارثة؟ ... ويقنع بأن «أوديب» الذي جعل منه إنسانًا، قد قتل أباه، وتزوج بأمه. وعندما يمتثل «أوديب» للمقتضيات السياسية، التي تضطره إلى البحث عن قاتل «لايبس»، فإنه يؤدي على النحو الواجب صنعته كملك: ويدير التحقيق بالذكاء والعناد العاتي، اللذين جعلهما «سوفوكليس» من نصيبه؛ فإذا هو يواجه شيئًا فشيئًا، فظاعة الكارثة وهنا يتجلى مسلكه رائعًا عظيمًا؛ إذ يُنزل بنفسه أفظع العقاب فيسترد في المجال الخلقي تلك العظمة، التي نزعها عنه «توفيق الحكيم» في المجال الأسطوري، ثم إن الشخصيات الأخرى: «جوكاست» و«أنتجون» و«أولاد أوديب» الآخرون؛ هم في مسرحية «توفيق الحكيم» أعلى سنًّا منهم في مأساة «سوفوكليس»، ومن ثمة كان اشتراكهم في القصة العصرية أكثر حركة، وقد تناولهم «توفيق الحكيم» مثل تناوله لـ «أوديب»، فهم أيضًا مخدوعون بأكذوبة «ترسياس»، يخلعون على الملك عظمة مكذوبة، عظمة الأسطورة، ولا يتبينون عظمته الحقيقية، وهي عظمة محض إنسانية، إلا حين يواجهون رزءه، حين يواجهون نوع إدراكه، لما يجب أن تكون عليه العاقبة، ولا يبقى غير «ترسياس»؛ ترسياس، الذي يمثل هادم الأساطير، والذي يشقُّ الإهاب، وينزع القناع الذي أعجب به الزمن القديم في غرارته، أجل «ترسياس» وحده، هو الذي يبقى سليط اللسان، قارص الكلام، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة حتى النهاية.

والمحاولة ممتعة، وليس هناك ما يمنع الكاتب العصري مقدَّمًا، من أن يستخدم لراميه الخاصة تلك الخرافة، التي استخدمها «سوفوكليس»؛ لتصوير جبروت القدر، وفزعات الإنسان الواقع في حبائله، يجاهد للفكاك على غير جدوى بل تفضي كل حركة من جهاده إلى توثيق الشباك، وتوكيد انتصار القدر! ... ولكن، أترى هذه الخرافة على الخصوص، تقبل كما تقبل الكثيرات غيرها تغييرًا غير التعبير القديم؟ ... إن المحاولات الفرنسية، التسع والعشرين التي أسلفنا الإشارة إليها تجيب — فيما يظهر — على هذا السؤال بالنفي!

فهل تُرى نجح «توفيق الحكيم» في إقامة الدليل على أن خرافة «أوديب» يمكن تحويلها إلى مقاصد، غير التي كانت ماثلة قيد نظر «سوفوكليس» حين كتب مأساته؟

إن القارئ — والمتفرج فيما أرجو — قد يقضي بما يخالف رأيي. فأنا من ناحيتي أرى أن «أوديب» هذا الذي ولد على ضفاف النيل؛ كأمثاله المولودين في فرنسا، لا يسلم من

تناقض، وذلك أن الخرافة هنا أقوى من المؤلف الذي يستخدمها. فلا غرو إذا كان «توفيق الحكيم» وقد توخى استخدام الموضوع القديم؛ للتعبير عن أفكار نفسانية وسياسية لم يستطع — شأنه في ذلك شأن «فولتير» وشأن «جيد» — أن يمنع مسألة القدر المحتوم، من معاودة الظهور في أكثر من موضع. فلقد بلغ من قوة هذه الخرافة أنها لا تدع لمن أراد استخدامها، إلا النزر القليل من حرية التصرف ... وهذا الجانب من الحربة قد استخدمه المؤلف المصري، جهد ما في المستطاع استخدامه، وعلى نحو يطرب له كل من تشغله هذه المسألة، التي عرضت لـ «روما» المتثقفة باليونانية، كما تناولتها من بعدها أوروبا الناهضة، وما زالت حتى اليوم ماثلة تشغل الأذهان، وهي مشكلة من أعظم المشاكل وأصعبها: مشكلة محاكاة القديم.

«ا. دي مارينياك»

تعقيب على المقدمة الفرنسية

عزيزي مسيو «دي مارينياك»!

إن إخفاق ثلاثين مؤلفًا، في مختلف العصور: منهم الوثني والمسيحي، ثم أخيرًا المسلم، أمام مأساة «أوديب»؛ لهو في ذاته مأساة! ... وعلة هذا الإخفاق تحتاج هي أيضًا إلى دراسة! ... وعلى الرغم من الحيطة، التي اتخذتها حتى لا أمسَّ بسوء «تراجيديا سوفوكل» في قوتها الدرامية؛ فإن شيئًا قد فاتنا هو بلا ريب، في غير متناول أيدينا ... ذلك راجع — كما قلت — إلى موضوع «أوديب» نفسه، وهو موضوع القدر القاسي المحتوم، الذي لا اختيار فيه ولا مردَّ له، يجثم بكل وطأة ثقله على امرئ من قبل ميلاده ...! ها هنا سر القوة في مأساة «سوفوكل» ...

من ارتضى هذه الفكرة، ومضى بها لا يلوي عل شيء آخر، فقد سلم إلى حدٍّ ما، على شريطة أن يكون بها مؤمنًا؛ إيمان الإغريق الأقدمين ... ذلك أن كارثة المؤلف، الذي يتصدى لـ «أوديب»، هي أنه لا يريد أن يقبل هذه الفكرة، أو يتخذها قاعدة لعمله ... فإن المسيحي المتدين لن يقبلها، على صورتها العنيفة، والمسيحي المتحرر لن يقبل غير الإنسان متحكمًا في مصيره ... وكلهم مع ذلك لا بُدَّ لهم من أن يواجهوا الخرافة في قصة «أوديب»؛ إذ بغير هذه الخرافة، لا توجد القصة على الإطلاق! ... تلك الخرافة التي قضَت على «أوديب» — من قبل ميلاده — أن يتلقى ضربة القدر المحتومة ... وهكذا واجه المؤلفون — هم أيضًا — نوعًا من «أبي الهول»، يقطع عليهم الطريق: هو ذلك «التناقض» الذي يقعون فيه؛ كما تقول: فهم لا يستطيعون قبول الخرافة كما هي، ولا يستطيعون في عين الوقت تناول قصة «أوديب» بغير الخرافة.

أما فيما يتصل بي باعتباري مسلمًا، فإن عقيدتي الدينية ترفض فكرة الله، المدبر لأذى الإنسان تدبيرًا سابقًا دون مقتضًى أو جريرة ... بل إن فكرة التدبير السابق، لما سينزل بالإنسان من أحداث، لا توجد قبولًا عند أهم الفلاسفة من المسلمين!

فـ «ابن رشد» يقول عن الله: «إنه مريد لكون الشيء في وقت كونه، وغير مريد لكونه في غير وقت كونه ... فأما أن يقال إنه مريد للأمور المحدثة بإرادة قديمة فبدعة! ...»

فإذا رجعنا إلى فقهاء الدين، وجدنا أن «أبا حنيفة» يرفض الانحياز إلى «الجهمية»، وأصحاب «المذهب الجبري»، ولا يسلم كذلك بإرادة الإنسان المطلقة، ولكنه يقف من هذه المشكلة العويصة، الموقف الذي أردت أنا أن أتبعه فيه، عند تناولي «أوديب»! ... قال أبو حنيفة: «إني أقول قولًا متوسطًا: لا جبر، ولا تفويض، ولا تسليط ... والله تعالى لا يكلف العباد بما لا يطيقون، ولا أراد منهم ما لا يعملون، ولا عاقبهم بما لم يعملوا، ولا سألهم عما لم يعملوا، ولا رضي لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم، والله يعلم بما نحن فيه! ...»

هذه الحقائق عن الإسلام يبدو لي أنها مجهولة في الغرب ... فالغربيون ما زالوا يعتقدون أن فكرة القدر عند المسلمين مقبولة على النحو، الذي كان معروفًا عند قدماء اليونان الوثنيين ... ولقد عُدت إلى معجم «فلا ماريون» ثم إلى معجم «لاروس»، أنقِّب تحت كلمة «قدر»؛ فعجبت إذ وجدت هذين المعجمين ينصان على أن القدر المطلق المحتوم، هو عقيدة اليونان والمسلمين ... وأدركت من ورود كلمة «مكتوب» في معجم «فلا ماريون» أن هذه الفكرة الخاطئة دخلت أوروبا عن طريق التسرب العامي، لا عن طريق التثبت العلمي!

إذا استبعدت هذه الفكرة الخاطئة الشائعة، واستحضرت قولَ أبي حنيفة «... ولا عاقبهم بما لم يعملوا ... ولا رضي لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم ... إلخ». فإن من السهل أن تفهم تصرف «أوديب» عندي ... فهو قد ترك «كورنت» باحثًا عن الحقيقة، خائضًا فيما ليس له به علم، فجرته رغبته في العلم بالحقيقة إلى ما جرَّه العلم الحديث على الإنسان الحديث، ممثلًا في «فرويد»، عندما طفق يحفر في أعماق الإنسان إلى أن وجد أنه عاشق في الباطن لأمه!

«فالموجب» لكارثة «أوديب» عندي لا يمكن أن يكون حقد الآلهة، المنطوي على الكيد والشر ... ولا يمكن كذلك أن أكون قد أردت إسقاط المسألة؛ لتعارضها مع عقيدتي، ولكني — كما ترى — قد جعلت الموجب للكارثة طبيعة «أوديب» ذاتها، طبيعته المحبة للبحث في أصول الأشياء، المعنة في الجري خلف الحقيقة.

على أن كارثة «أوديب» لها عندي موجب آخر ... هو عمل «ترسياس»؛ وتدخُّله في الأمور السائرة في مجراها!

إن كثيرًا من الانقلابات التاريخية والمحن البشرية، يرجع في أغلب الأحيان إلى إرادة رأس كبير، وتمرد بصيرة عمياء! ... إن هنالك شراكًا إلهية بدون ريب، قد نصبها الله، لا لإنسان بعينه؛ بل لأي إنسان يخرج على النواميس! ... شأنها شأن تلك الفخاخ، التي ينصبها صاحب الحقل لاقتناص الثعالب، التي تفسد الكروم! ... إنه لا يقصد بها ثعلبًا بالذات، نعم، إن الله يمكر ويسخر، من الماكرين والعابثين! ... متى يفعل ذلك؟ ... متى تكون السخرية الإلهية؟ ... أكانت منذ الأزل، حين وضع الله الناموس، وجعل إلى جانبه مصيدة ... متوقعًا لها ضحية في وقت من الأوقات، لا يعنيه اسمها ولا شخصها؟ ... أم أن المخالفة تقع أولًا. فيطرح الإله بعدئذٍ على مرتكبها الشبكة في حينها؟ ... هذا مجال ليس لنا أن نخوض فيه!

كل ما أردت أن أقول هو أن الصراع عندي في «أوديب» لم يكن بين آلهة عتاة، يبطشون ببريء يتعقبونه لذاته، ولكنه صراع بين إرادة الإله وإرادة الإنسان!

على أن ذلك كله لا يخلينا من صعوبة المشكلة ... ولقد رأيت أنت جانبًا واحدًا، من جوانب هذه الصعوبة ... هو محاولتي استخدام الخرافة القديمة، التي لا تقبل في صراحتها لَبسًا ولا غموضًا، في أغراض تتعارض مع صميم الخرافة!

ولكن هنالك جوانب أخرى من الصعوبة منها اضطراري إلى التعرض لمسألة «الجبرية» و«القدرية» في حدود لا يمكن أن تتسع لها «التراجيديا» دون أن تفقد روعتها الفنية ... وهي مسألة تحطمت على صخرتها أدمغة الفلاسفة، وفقهاء الدين، في مختلف العقائد! ... وانتقلت في العصور الحديثة، من ميدان الدين والفلسفة، إلى ميدان العلم؛ فقضية «الجبرية» و«القدرية» أصبحت اليوم قضية علماء «البيولوجيا» و«الطبيعة» و«الكيمياء»!

وإنهم الآن ليتساءلون إلى أي حدٍّ تكمن في النطفة، من صفات الوراثة، ما يجعل الأبناء مسيرين مجبرين، مقيدين: بصفات وشخصيات، صنعت لهم صنعًا؟ ... وإلى أي مدًى يعتبر الجسم الإنساني آلة دقيقة، يسير كل شيء فيها بحساب مرقوم، وفي اتجاه محتوم؟

والخلاف في ذلك شديد بين العلماء؛ كما كان بين الفلاسفة! ... على أن المعروف اليوم أن هناك مقدارًا من الجبر، ومقدارًا من الحرية، يسيطران على تصرفات الأحياء والجمادات؛ فحتى في عالم الغازات، يوجد شيء من الحرية والانفلات، خارج نطاق قوانينها الصارمة ... ذلك أن وجود القانون ... يستلزم وجود الخروج على القانون ... وهذا يستلزم أيضًا نوعًا من العقاب ... ليس في اختلال النتائج وحدها ... بل في إعادة الخلل إلى النظام، ورد المتمرد إلى موضعه!

ففي كل ذرة أو خلية ناموسها، وإلى هذا الناموس شراكه الساخرة، التي يقع فيها الخارج عليه، فترده إلى مكانه من النظام العام! ... كل هذا داخل ضمن القانون الأزلي، الذي يسير عليه الكون!

ورُوح الإسلام يتمشى مع هذه النظرة ... لذلك كان لا بد لي أن أخضع قصة «أوديب» لهذا التفكير، وإذا كنت قد لاحظت أني جردت «أوديب» من عظمته الأسطورية؛ لأضفي عليه عظمة أخرى، صادرة عن فضيلته البشرية؛ فإن ذلك راجع أيضًا إلى رُوح الدين الإسلامي، الذي يفاخر بأن نبيه العظيم بشر!

كل هذه المقاصد لا توصِّلنا إلى شيء، ما دمنا قد أفقنا في استخراجها من صميم الخرافة القديمة، التي قامت عليها مأساة «أوديب»! ... ولست أدري إلى أي مدًى كان إخفاقي أنا بالذات، بالنسبة إلى التسعة والعشرين السابقين؟ ... ذلك أن مهمتي أعسر من مهمتهم!

فهُم بحكم ثقافتهم اللاتينية واليونانية، لا يجدون هذا العمل غريبًا عليهم، ولا على آدابهم، القائمة على آداب الإغريق واللاتين! ... في حين أحاول أنا اليوم، أن أرسي هذا الفن الجديد في آدابنا العربية، على قواعده اليونانية. وهو العمل الذي كان يجب أن يصنع لدينا منذ قرون!

لقد أنفقت أعوامًا أربعة في هذه المحاولة ... أدرس بغير عجلة كل موقف، وكل شخصية، وكل قضية! ... وأُعنى بتفصيلات ودقائق، تحتاج إلى تعليل جديد، ترضاه عقولنا العربية الإسلامية!

هذا الوحي الذي ذهب إليه «كريون» في معبد «دلف»! ... كيف يستطيع أن يعلم بمقتل «لايوس»؟! ... ثم هذا الطعن الذي أنزله «أوديب» بعينيه؟ ... أكان إمعانًا في الكبرياء؛ كما ذهب «جيد»؟ ... أم رغبة في أن يبلغ «أوديب» أوج الشقاء، كما بلغ أوج المجد، كما ذهب «كوكتو»؟

في رأيي أن ذلك كله، من قبيل التفسيرات الأدبية الذهنية! ... ولكن «أوديب» عندي كان شديد التعلق بأسرته، عميق الحب لـ «جوكاستا»! ... وكانت فجيعته فيها، وهو يراها على هذه الميتة البشعة أشد مما احتمل!

كانت لحظة جنون طارئة، عصفت برأسه من غير شك، فلم يشعر فيها بنفسه، وهو يضرب عينيه، ويصيح بالملكة:

«لن أبكيك إلا بدموع من دم!»

هذا تفسير لم أستطع أن أقبل غيره! ... و«سوفوكل» لم يوضح لنا ذلك؛ لأن الخرافة التي ارتكز عليها — في كل قوتها وعنفها — تعفيه من أي إيضاح! ... فشعور «أوديب» أنه تلقَّى هذه الضربة، من الآلهة العاتية، ومن «أبولون» على الأخص، ذلك الحاقد عليه؛ جعله يرى الحادث لعنة حقيقية، لم يجد لدفعها سبيلًا، إلا أن ينزل بنفسه تلك الفظاعة، التي قد تستدر عطف السماء!

ولكن «أوديب» عندي لم يستطع التسليم لحظة، بأن ما حدث أقوى من حبه لـ «جوكاستا»! ... ما من شيء عنده أقوى من حبه لها؛ فهو قد فعل بنفسه ما فعل من أجلها وحدها!

وغير ذلك دقائق كثيرة، وتفصيلات جمة، يستطيع الباحث الدءوب أن يستشف منها عقبات وصعوبات، وقفت في وجه كل من حاول التصدي لمأساة «سوفوكل»!

وما أعتقد أن أحدًا من هؤلاء، مرت بخاطره — برهة واحدة — فكرة التحليق إلى مستوى النموذج اليوناني! ... فإن كماله الفني يرجع — فضلًا عن عبقرية «سوفوكل» — إلى قوة الخرافة، في جوهرها الوثني الأصيل، وإيمان الشاعر بها، واستخراجه كل المأساة وحدها!

وما جادل أحد قط في أن «أوديب» «سوفوكل»، بلغت من الكمال الفني أوجا، هو مفخرة للذهن البشري! ... ولعل «شكسبير» أدرك ذلك بسليقته الفنية، فلم يقربها على ما في موضوعها من إغراء، وهو الذي استعار موضوعات آثاره من القصص: الدانمركية، والإيطالية، واللاتينية، واليونانية!

أراه خشي أن ينازل «سوفوكل» في عرينه؟ ... لو أنه فعل، لكان تاريخ الآداب الأوربية اليوم ذاخرًا بفصول، لا تُحصى في وصف هذا النزال المخيف!

إن محاكاة القديم هي مشكلة صعبة حقًّا ... بل إنها تكاد تكون مستحيلة، في بعض الأحوال؛ كما لو كنا نريد بعنب جديد أن نصنع للتو خمرة معتقة! ... هنالك ولا شك سرٌّ خفيٌّ في تركيب ذلك الخمر القديم، يجعل له مذاقًا لا يضاهى!

أما بعد، فحسبنا أن حاولنا الصعب من الأمور، ونحن نعلم كل العلم أن الذي ينتظرنا في نهاية الطريق هو الإخفاق ... إن أجزل الأجر هو أحيانًا العمل نفسه، لا نتيجته! ... وما أعظم الأجر الذي نلته، والثمر الذي تساقط عليَّ، بمجرد مكثي بضع سنين، في ظلال تلك الشجرة القديمة، الدائمة الاخضرار والإثمار: «تراجيديا سوفوكليس»! ...

ت ا

هنداوي